مقدمــــة

قلبت ببصرى فى عشرات الأسئلة المعروضة علىَّ ثم قلت لصاحبى* : إننى فى كتبى الكثيرة قد تعرضت لهذه الموضوعات ، وأحسبنى أجبت عنها إجابة شافية . .!

قال : لاتستطيع أن تحيل الناس على ما كتبت فى أسئلة محددة توجه إليك ، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة فى الموضوع المطلوب منك ، حتى يرجع السائل وقد أضاء الحق لبه وقلبه!! وتريثت قليلاً ثم قلت لنفسى : إن هذا العلم خزائن ، لعل الأسئلة تكون مفاتيحه! وما يدرينى؟ لعل الله يؤتينى الرشد ويلهمنى الصواب ، فأكشف ظلمة ، أو أمحو حيرة ، أو أطفئ فتنة ، أو أثبت حقاً يعصف من حوله الباطل . . . وقررت أن أجيب بعد أن يعافينى الله من بعض العلل .

ولما شرعت أكتب ، وجدت أنى قلما أكرر نفسى ، ففى هذا الكتاب حقائق جديدة ، أو أداء ـ أخضر وأيسر ، أو ترتيب لأدلة كانت مشوشة ، فيما يقرأ الناس من علوم الدين ، أو مزاوجة بين التراث القديم والعقل الحديث .

فإذا وقع بعد ذلك تكرار لفكر سبق فهو مغتفر إن شاء الله مع هذه الفوائد الجمة اللاحقة .

إن اللوم يتجه إلينا ـ نحن دعاة الإسلام ـ لأننا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والمنطق الذى يقنع أهله ، والشبهات التى جدت مع مدنيته!

وبعضنا قد يحيا متخلفًا عن عصره ألف سنة . يخاصم فرقًا بادت ، ويناقش قضايا نسيت ما يحب الناس أن يسمعوا عنها جداً ولا هزلاً . . والإسلام لايخدم بهذا الأسلوب .

وحين نظرت فى الأسئلة المطروحة على أدركت أنها وضعت بحكمة وسيقت إلى هدف ، وأن الإجابة الحسنة عنها تغنى الثقافة الإسلامية ، وتجلو غبارًا كثيرًا

* الأستاذ خالد محمد خالد .

عن حقائق الرسالة الخالدة . إن الإسلام دين عظيم حقاً ، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا إلى مستواه ، إلا من عصم الله . . وكان لذلك أثره فى مسيرة الدعوة ، وإيضاح معالمها . .! ومصابنا هنا يجب أن يجبره نشاط علمى دءوب مخلص شجاع ، يرد التهم ويقيم العوج وينفع العالمين برحمة الله المهداه ، ويصل الناس بربهم عن الطريق الوحيد المحترم ، طريق العقل المفتوح والمنطق السمح والجدال الحسن .

وإنها لفجيعة أن يسبق إلحاد أعرج ، ويتأخر هدى مستقيم لا لشىء إلا لأن حملة هذا الهدى كسالى ، ومفرطون!

أعترف بأنى لولا عون الله ما كنت لأخط حرفًا ، فقد حاصرتنى متاعب كثيرة ، وأملى أن أكون قد وفقت ، ونلت ما أطمح فيه من مغفرة الله ورضاه .

محمد الغزالى

١. ما الإسلام؟ ولماذا سمى كذلك؟

الإسلام الخضوع لله ، وتسليم النفس والأمر إليه سبحانه أى إقامة العلاقة بين الإنسان وربه على مبدأ «السمع والطاعة»!

قد يشعر امرؤ بأنه لا سلطان لأحد فى الأرض والسماء عليه ، وأنه يفعل ما يهوى دون ارتباط بتوجيه ما . وقد يقبل هذا الشعور فى تحديد العلاقة بين إنسان وإنسان مثله ، أما بين الإنسان وربه الذى خلقه بقدرته ، ورباه بنعمته ، ورسم له طريقًا مستقيمًا وأمره أن يسير عليه . . فلا مكان لهذا التمرد والشموخ .

إذ الواجب أن يجعل الإنسان نفسه تابعًا لمراد الله ، أو الشخص الذى يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها . . قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾(١) .

وماذا يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق؟ بين موجود سيقضى على ظهر الأرض بضع عشرات من السنين تقل أو تكثر ، ثم يرجع بعد ذلك إلى من أوجده؟

أتكون علاقة تجاهل أم معرفة؟ أتكون علاقة تمرد أم خضوع؟

إنه طبيعى جدًا أن يعرف الإنسان هذا الرب الكبير ، وأن يرتبط بأمره ونهيه وأن يتوجه وفق هديه ، وهذا هو معنى الإسلام وهو المعنى الذى قرره المرسلون .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾(٢) .

والمرء إذ يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه ، وانقياده المطلق لتوجيهه سبحانه ـ يتجاوب مع الكون كله الساجد لربه ، الهاتف بمجده ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾(٣) .

ويخطئ من يظن الإسلام عنوانًا خاصا بالدين الذى جاء به «محمد» منذ خمسة عشر قرنًا ، إن الإسلام عنوان لجميع الرسالات التى هدت الناس من بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا .

(١) لقمان : ٢٢ . (٢) آل عمران : ١٩ . (٣) آل عمران : ٨٣ .

صحيح أن حقيقة الإسلام بلغت تمامها ، وأخذت صورتها الأخيرة فى رسالة محمد ﷺ ، بيد أن هذا العنوان أطلقه القرآن الكريم على ما بلغه أنبياء الله كلهم دون استثناء .

إن إسرائيل - وهو لقب التشريف ليعقوب - ليس إلا نبيا دعا إلى الإسلام وتشبث به ومات عليه وأوصى به أولاده ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(١) .

والواقع أن الدولة التى تسمى اليوم بإسرائيل هى اسم بلا مسمى ، وعلم على وهم كبير ، لأن إسلامها لله صفر أو قريب من الصفر .

وكان عيسى يعلّم أتباعه الانقياد لله وصدق عبوديته ، وتأمل فى هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(٢) .

ويشمل وصف الإسلام جميع الأنبياء الذين نفذوا الأحكام السماوية بدءاً من عهد التوراة إلى اليوم . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ... ﴾(٣) .

ولا يصح الإسلام إلا باكتمال حقيقتين مهمتين أولاهما حسن معرفة الله ، وتصور الألوهية بأمجادها كلها ، فلا يعد مسلما من أشرك بالله شيئاً ، أو نسب لله ولدًا ، أو ظن الذات العليا متلبسة بالعالم حالّة فى الكون الذى نعيش فيه . . لابد من العلم الصحيح بالله . . ويجىء من بعد ذلك الانقياد له وتنفيذ أوامره .

وفى القرآن الكريم فيض غامر من تنزيه الله ، والثناء عليه ، وإحصاء لأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وإبراز لمعالم العظمة الإلهية لا مثيل له فى كتاب قديم أو حديث سماوى أو أرضى .

(١) البقرة : ١٣٣ . (٢) المائدة : ١١١ . (٣) المائدة : ٤٤ .

فأنت تحس عند قراءة القرآن بالشهود الإلهى على كل شىء ، والهيمنة المطلقة ، ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾(١) .

وكيف لا يسلم المرء نفسه لمن خلق كل شىء ودبر كل أمر ، وملك السمع والأبصار ، وقلب الليل والنهار ، وأرسل الرياح لواقح ، وفرج الكروب ، وأخرج الحيارى من الظلمات إلى النور ، وفى القرآن الكريم إنكار شديد وغضب هائل على من ينسب لله ابنا ، أو يجعل له بعباده شبهًا ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾(٢) .

وبعد إثبات هذه الحقيقة فى صحة المعرفة بالله تجىء الحقيقة الأخرى . . . وأساسها الانقياد التام لله ، والاصطباغ بطاعته .

ولا يجتمع إسلام لله وتمرد عليه ، أو خضوع له ورفض لأمره!!

فهل معنى ذلك أن المسلم لا يتورط فى معصية؟ الحق أن المسلم إذا عرض له عصيان كان ذلك طارئًا غير محسوب ، أو عملا انزلق إليه صاحبه وهو كاره له أو غير مستبين لشره ، ومن ثم فهو يتخلص منه آسفًا ونادمًا وخجلان . .!!

وطبيعة النفس ، وظروف البيئة قد توقع المرء فى سيئة ما ، كالذى يقود سيارته آيبا إلى بيته فتغفو عينه إغفاءة تفقده السيطرة على مقود السيارة فيصاب هو أو يصيب غيره .

إن نور العقل قد ينكسف ، وطاقة العزيمة قد تنفد ، وعندئذ يقترف المرء ما لا يليق ، ولا يخرج المرء بذلك عن الإسلام ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(٣) ولذلك رفض النبى ﷺ استنزال اللعنة على شارب خمر أوهن الإدمان إرادته ومروءته . إن هذا الشارب يمثل نوعًا من العصيان أو حالة من الاضطراب غير ما يقع فى مجتمع آخر يزرع العنب ويعد المعاصر ، ويفتح الحانات وينظم توزيع الإثم ، ويفرض ضرائب على المتاجرة به . .

(١) الكهف : ٢٦ . (٢) يونس : ٦٨ ، ٦٩ . (٣) الأعراف : ٢٠١ .

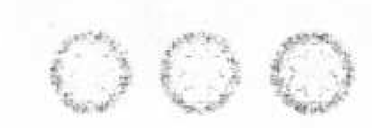
الفارق بعيد بين مستبيح لا يرى لله حقا ، ولا يحس فى عمله جرما ومعتل خارت قواه فسقط ، الأول مجرم لا مسلم والآخر مريض تلتمس له العافية ، ويحسب بين أهل الإسلام .

وقد استطاع نبى الإسلام تكوين أمة مسلمة لله ، تنهض للصلاة له من طلوع الفجر إلى غسق الليل ، وتتردد على المساجد فى رتابة ودقة يمكن أن تضبط عليهما الساعات .

كما أن هذه الأمة التزمت فى شئونها المدنية والعسكرية والثقافية والسياسية أن ترضى ربها ، وأن تتوجه وفق مراده ، بحرص وإخلاص .

قدوتها الأولى والأخيرة إنسان تجرد للحق وأصاخ من أقاصى فؤاده إلى أمر الله له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١) .

وكذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٢) . . .
إن خضوع الإنسانية لبارئها الأعلى صدق وشرف ، وهذا هو الإسلام .



(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) النساء : ٦٥ .

٢. لماذا كان الإسلام خاتم الأديان ؟

الإسلام هو العلاقة الوحيدة بين الناس وربهم منذ بدأت الخليقة ، وتكونت للبشر مجتمعات ، ونستطيع القول إن القرآن حوى جملة التعاليم التى بلغها الأنبياء الكبار ـ أعنى أولى العزم وحملة الرسالات المهمة ـ فلو كان موسى أو عيسى موجودين لاكتفيا بما قال القرآن فى ترسيخ العقائد وتأديب الأمم .

أما الشرائع الجزئية فإن التفاوت فيها ليست له قيمة كبيرة .

والإسلام الذى بلغه محمد وأخذ الناس به هو الصورة الأخيرة للوحى الأعلى ، وهو كذلك الصورة العامة التى تستغرق الأجناس كلها وتتناول الأجيال التى تسكن الأرض حتى قيام الساعة . . النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة أى محدودة الزمان والمكان ، أما النبوة العامة الخالدة ـ فهى نبوة محمد وحده لايشركه فى ذلك نبى من السابقين .

وعلة ذلك أن الإسلام بعد ما زود الإنسان بالوصايا الأخيرة للوحى الإلهى وكل إلى عقله أن يتحرك ويشق طريقه ، ويستغل قدرته على الفهم والحكم وتعرف الصواب والمصلحة . . فانتهاء عصر الوحى هو ابتداء عصر العقل ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل فى كتابنا «فقه السيرة» .

إن نبى القرآن عليه الصلاة والسلام أرسى دعائم العقيدة والعبادة والخلق ، وساق نصوصا حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة ، وهذه أسس وتوجيهات لاتختلف باختلاف العصور ، ولايمكن اختراق أسوارها .

أما ما وراء ذلك من شئون ـ وما أكثره ـ فموكول إلى العقل الإنسانى يمحو فيه ويثبت . . فى ميدان العلوم والأنشطة الأرضية وشئون الحياة المدنية والأطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يضعه الدين . وفى كل المجالات التى تتحدد فيها المبادئ وتتحرر الوسائل ، يستطيع العقل أن يتصرف دون عائق .

فالشورى مثلا مبدأ دينى لمنع الاستبداد السياسى ، ومنع عبادة الفرد ، وتمكين الأمة من فرض رقابتها على ما يعنيها . .

والعقل له أن يضع من الدساتير مايحقق هذه الغاية .

والعدل مبدأ دينى لمنع الافتيات والتظالم ، وللعقل أن يشرع من القوانين وينشئ من المحاكم مايحقق هذه الغاية إداريا واجتماعيا واقتصاديا .

والجهاد مبدأ دينى لحماية الإيمان وكبح الفتنة ، ووسائل الجهاد فى البر والبحر والجو لاحصر لها ، والإبداع العقلى فى هذه الميادين لا حدود له . . . بل إن شرائع العقوبات المروية تركت أغلب الجرائم للاجتهاد العقلى ، مثل الغش والغصب والتزوير والربا والخيانة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف . . . إلخ .

وقد تنشأ أحوال يتعين على العقل أن يعالجها ويرقب آثارها ، لأنها لم تعهد من قبل فى عهود الأنبياء ، لا أقول مثل غزو الفضاء وحرب الأقمار الصناعية ، بل فى النشاط الإنسانى العادى على ظهر الأرض ، فقد جدت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تفرض سلطانها على نحو لم يعرف فى تاريخ الحياة البشرية من قبل ، وما يتم هذا العلاج إلا بالعقل اليقظ ، مع استصحاب هذا العقل لوحى الإيمان وتقوى الله .

إن الله لا يعجزه أن يرسل نبيا آخر ، لكن هذا الإرسال سيكون عبثا إذا كان عمل النبى المرتقب قطرة من البحر الذى سبقه أو ترسما لخطاه أو تكرارًا لما قاله . . . ومن ثم اكتفت الأقدار بكتاب محمد وحكمته فى قيادة الإنسانية إلى آخر الدهر .

ولو أن ورثة الإسلام من أمراء وعلماء أدوا واجبهم بأمانة ما كان هناك داع لهذا السؤال :

لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟

فإن هذا التساؤل تولّد من الفراغ والقصور الملحوظين على الحياة الإسلامية العامة ، وبخاصة فى العصور الأخيرة .

من المقطوع به أن الأمة الإسلامية فقدت القدرة على قيادة نفسها بسبب فسادها الثقافى والسياسى فكيف تقود العالم؟ أو كيف تقدم نموذجا لصلاحية الإسلام الأبدية لقيادة العالم؟ .

إن أصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم إلى وراء وأن توضع قيود على حراكه الفكرى والحضارى ولو كان الإسلام مسلكا رجعيا ، أو توقفا حضاريا لرفضناه دينا يرقى بأتباعه بل دين يرقى بالعالمين .

لكن فقهاء الإسلام الحقيقيين قالوا : حيث تكون العدالة والرحمة فثم شرع الله! حيث تكون الفضيلة والحرية والمصلحة فثم شرع الله !

وماذا ينشد الناس إلى آخر الدهر غير هاتيك الغايات؟

إن اختلاف الليل والنهار لن يقلب حقائق الأشياء . . فإذا كانت الوحدانية صفة الله فإن هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما اطردت مواكب الزمان .

وإذا كانت تبعية الإنسان لربه حقا لا معدى عنه ، فإن تقدم الحضارة لن يعنى أبدا أن الإنسان استغنى عن الله والصلاة له والضراعة إليه .

وقل مثل ذلك فى ميدان الأخلاق ، والعلاقات الإنسانية كلها .

ويوم ظن أهل الكتاب أن الدين عنوان ومراسم وأوهام مقدسة قيل لهم : كلا ، الدين ارتباط بالله ، وإحسان للعمل ، ولن يضام أحد أخلص لله قلبه ، وأصلح له عمله ، واستقام على الطريق . .! وقالوا : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١] .

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله؟ رب العالمين يقول للناس فى القارات المعمورة من أرضه ، اتجهوا إلىَّ مخلصين ، وأحسنوا كل عمل تكلفون به ، تظفروا بالأمن وتنجوا من الحزن وتكسبوا الدنيا والآخرة . .

ماذا بعد هذا الكلام؟ وماذا يقوله نبى آخر بعد محمد عليه الصلاة والسلام؟

على أن هناك شرائع تفصيلية ترتبط بهذا الأصل ارتباط الشجرة بجذعها ، ولا يقبل الإهمال لهذه الشرائع الفرعية!

غير أننا نلفت النظر إلى أمرين مهمين : الأول أن تفكير المسلمين لان أمام بدع وخرافات أدخلت على دين الله وهو منها برىء ، وبرزت هذه الأهواء الدخيلة فى أعمال المسلمين أكثر مما برزت معالم الدين الحق ، ومن مصلحة الإسلام لكى يبقى أن ينقى من هذا الغش . . .!

الثانى أن الترتيب المفروض بين شعب الإيمان سرت فيه الفوضى ، فتحولت أركان إلى نوافل ، ونوافل إلى أركان .

وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أمورًا عقلية لها منطقها الحر ، وتبعت أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الأجناس التى اعتنقت الإسلام .

والمعروف أن الحكم الشرعى هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، فلا حكم حيث لا خطاب .

إن الإسلام كان ولا يزال الدين الذى ارتضاه الله لعباده إلى اللقاء الأخير ، ومصلحة الإنسانية فى استمساكها بهذه العروة الوثقى .

(١) البقرة : ١١١ - ١١٢ .

٣. هل يستطيع الإنسان السوى الرشيد أن يعيش بلا إسلام؟

لو كان التدين غباوة لآثرت العيش بلا دين ، ولو كان حرجا على النفس أو قبولا للدنية ، أو سطوة عنصرية لآثرت العيش بلا دين! لكن الدين ليس كذلك ، بل هو مخاصمة لكل ذلك . إن الملاحدة خلطوا خلطًا قبيحا بين الحق الذى نزل من عند الله ، وبين الباطل الذى صنعه البعض من عند نفسه وزعم أنه دين .

ومن عرض باطلا ما على أنه دين فهو كاذب ، والكفر بما عرضه واجب .

والناس فى عصرنا هذا فرقاء متباينون ، منهم من ينكر الألوهية ويتصور العالم لا ربَّ له . ومنهم من يعترف اعترافا غامضًا بالألوهية ، ويحسب الأديان الكبرى متساوية المنهج والقيمة . ومنهم من يعتنق اليهودية أو النصرانية ، ولا يرغب عنهما أبدًا ، ومنهم الوثنى المغلق ومنهم المسلم الذى رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا .

وفى المسلمين غوغاء يحيون وفق ما ورثوا من سنن وبدع وعلم وجهل وهدى وهوى .

وفيهم دعاة إلى الحق الذى نفذه السلف الكبار ، ثم استوحش قليلا وكثيرا مع مسيرة التاريخ ، ثم أمسى غريبًا فى هذه الأيام .

ومشكلة الدعاة المسلمين تجىء من الصورة التى يظهر بها الإسلام فى العالم الإسلامى ، وتجعل المرء السوى فى بلاد أخرى ينفر منه .

فلو أن رجلا يعيش فى بلاد حرة ، يناقش فيها الحكومة دونما رهبة ، ويعترض رئيس الدولة ويعارضه دونما قلق ، مثلما كان يفعل المسلمون قديمًا مع أبى بكر وعمر ، لو أن هذا الإنسان قيل له : اعتنق عقيدة التوحيد فهى حق ، ولكن إذا قلت للحاكم : لا ، رميت فى السجن! أو ضرب عنقك !!

أتحسب هذا الإنسان يسلم؟ كلا وماذا يغريه بالدخول فى دين يقدر الحاكم فيه على تدمير مدينة ودفن ثلاثين ألفا تحت أنقاضها ، ويبقى بعد ذلك مهيبا مصونا توجل وسائل الإعلام القريبة والبعيدة من تناوله .

إن هذا الإنسان يكفر ويكفر ، ولا يرضى بالدخول فى هذه الدائرة المزعجة . . . ومن المسئول عن محنته؟ ساسة جبابرة لا دين لهم اشتغلوا فتانين عن الإسلام بأسلوبهم فى الحكم .

وهناك مشتغلون بالعلم الدينى يقدمون الإسلام على أنه حبس وتجهيل للمرأة ، ويجتهدون فى تقرير أحكام تظهر النساء وكأنهن جنس مهدر الحقوق ، محقور المنزلة مغموض العقل يستغرب وجوده فى ميادين العلم والعبادة والجهاد ، بل يستنكر عليه أن يقود سيارة .

لا جرم أن النساء فى شرق العالم وغربه تأبى اعتناق هذا الدين وترى الحكمة فى تجنبه . . !! ويؤازرهن فى ذلك ألوف الرجال الشرفاء .

إن فتنة الناس عن الإسلام بهذه الطريقة هى شىء محزن حقا ، وكثيرا ما أذكر قصة البدوى الذى قالوا : إنه عرض ناقته فى السوق بدرهم واشترط أن يباع مقودها معها بعشرة آلاف . . فكان الناس يقولون ما أرخصها لولا هذا المقود الملعون .

أجل وما أسهل اعتناق الإسلام لولا هؤلاء المحمولون عليه اللاصقون به .

نسأل بعدئذ : هل الشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحيه يمكن أن يكون سويًا رشيدًا؟ ونجيب : إن مثل هذا المخلوق مصاب يقينا فى بصيرته وسيرته ، وإنكاره لربه أفحش من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم .

وقد تكون له موهبة علمية ، لكن ذلك لا يرفع خسيسته ، وقد حكمت الولايات المتحدة بالإعدام على عالم بالذرة أفشى أسرار عمله للروس ، إنه عد من كبار المجرمين لأنه خان وطنه وقومه .

وما الوطن؟ قطعة من الأرض . وما القوم؟ قبيل من الناس . فكيف بمن خان رب الأرض والسماء ورب البشر كلهم؟ ألا يعد مجرما؟

إن عظمة موهبة ما لا تنفى الإصابة بعلل مهلكة ، فقد يكون المرء حاد البصر جدًا ، ولكنه مصاب بسرطان يوشك أن يخترم عمره ويورده المهالك ، فما غناء بصره القوى مع عته الجسيمة؟

والشخص الذى يرفض معرفة الله والتقيد بدينه مهما نبغ فى أمر ما ، فهو معتل الضمير ، زائغ التفكير ، مخوف السلوك على الأقربين والأبعدين ، بل هو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان .

وعبادته لهواه تجعله مشئومًا على نفسه ومن اقترب منه ، وقد يعاقبه الله فى العاجلة فيجعل ذكاءه ضده ، فيبحث عن حتفه بظلفه ويحفر قبره بيده .

وقد وصف الله سبحانه عبيد أهوائهم الكارهين للاستضاءة به ، والاستمداد منه فقال :﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(1) .

ولقد رأيت فى أرجاء البلاد العربية أناسًا ينتمون إلى «العلمانية» ويستبعدون بعنف كل أثارة للإسلام فى ميدان التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه .

وتفرست فى وجوه هؤلاء وأعمالهم ، فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية . فيهم مسلمون ـ كما يقال ـ يكرهون ما أنزل الله . وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تخاصم الإسلام لكى يكثروا السواد ويشبعوا الأحقاد ، ويتظاهرون ـ مع ذلك ـ بالحياد!!

ويستحيل وصف أحد من هؤلاء بأنه إنسان رشيد ، لأنه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بنى إسرائيل تسلحوا بعقيدة مهاجمة ، وسياسة جعلت الدين يغتصب الأرض والعرض ، فكيف يقبل الدين مهاجما وترتضى سياسته وتحترم سطوته ؟ ويرفض الدين مدافعا ويعتبر إشراكه فى التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة .

ألأن الدين هنا هو الإسلام ، ولأن الدين هناك هو اليهودية؟!

لا سياسة فى الدين إذا كان إسلاما يدافع ، وتقام الدول من الهباء إذا كان الدين صهيونية تسطو وتوصف السياسة هنا بأنها حكمة وتقدم؟؟

على أنه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد ، وكراهية هذا الإنسان العظيم والتحامل عليه ، إننا نضحك من إنسان يرى أن الأرض كوكب مثلث أو مربع ، أو أن موسى عليه السلام ولد فى الولايات المتحدة . فكيف لا نضحك من شخص يرى بوذا إلها ومحمدًا قاطع طريق؟

وكيف لا نضحك من شخص يرى الإسلام عبادة أصنام واستباحة أعراض ولا يعرفه دين توحيد وعفاف؟ إذا لم يكن هذا الشخص مغفلا ، فهو جاهل بلا ريب ،

(1) الفرقان : ٤٣ - ٤٤ .

والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوى ورشيد ، قد يكون الجهل عذرًا يسقط المسئولية الأخلاقية عند مخالفة القانون ، ولكنه لن يكون منقبة تزين صاحبها . . إن هناك يهودًا يصدقون أن الله صارع أباهم إسرائيل وكاد ينهزم أمامه . ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل للعنة الخطيئة التى اقترفها آدم ، وإذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداءً له باء هو الآخر باللعنة الأبدية!

فليعتقد من شاء ما شاء ، ولا يتطاول فوق مكانته ، ولا يتعرض بالتكذيب للإنسان الذى جاء ينقى رسالات السماء مما أهانها ، والذى جاء فى كتابه هذا التقريع لكل شارد : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴾(1)؟

إن جرس هذه الآيات الموجزة ينبعث دقات رهيبة الرنين تثير الحذر ، وتوقظ الانتباه! أو هى ومضات متقطعة تلفت السائر فى الدرب المتشابه كيف يعرف هدفه ولا يثنيه عنه .

إن الجهل بالإسلام نقص شائن ، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه ، وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته ، وبشارته ونذارته ، لم تُرَطِّبْ قلبه لحظة خشوع ، ولم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين . . .؟؟

(1) النجم :٣٦ - ٤١ .

٤. كيف بُنِيَ الإسلام على خمس؟ وما هى؟ ولماذا خمس بالذات؟

شرحنا أن الإسلام هو العنوان المعروف للدين الذى جاء به خاتم الرسل محمد ﷺ ، وأن الأنبياء الأوائل بلغوا صورًا محدودة لهذا الإسلام تناسب مدارك الأمم الأولى وقدراتها فالدين فى الحقيقة واحد ، يشبه إنسانا فى فترات الصبا واليفاعة . . . ثم اكتمل هذا الإنسان وبلغ أشده ، اكتمل مبنىً ومعنىً ، ذلك هو الفرق بين الرسالة الإسلامية كما بلغها النبى الأخير ، وهذه الرسالة كما بلغها فى فجر الخليقة مرسلون محليون محدودون . . .

وبناء الرسالة على خمس يحتاج إلى إيضاح فإن شعب الإيمان ومعالم الانقياد إلى الله تقارب السبعين عنصرًا .

وهذه العناصر السبعون مبينة فى كتاب الله وسنة رسوله ، وهى تتناول الفرد والمجتمع والدولة ، وتستوعب قضايا خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة!

من أجل ذلك لم يقل الرسول ﷺ : الإسلام مؤلف من خمس أو يتكون من خمس ، وإنما ، قال : «بنى على خمس» .

فهو يشبه الخيمة التى يقيمها الجوالة فى رحلاتهم ، والخيمة تقوم على عمود أساسى فى وسطها ، وأربعة أعمدة تمد جوانبها وتثبت قماشها!

وأنت تعلم أن جسم الإنسان يتكون من أعضاء وعضلات وأربطة وأعصاب وعظام وحواس . . إلخ ومع ذلك فهناك عدة أجهزة رئيسية هى دعائم هذا الكيان الدقيق أحصاها علم الأحياء فى :(١) الجهاز العصبى (٢) الجهاز الدورى (٣) الجهاز الهضمى (٤) الجهاز التنفسى (٥) الجهاز التناسلى والتنويه بهذه الأجهزة ووظائفها لا يلغى بقية ما يتكون الجسد الإنسانى منه . . .

والخمس التى بُنى عليها الإسلام هى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت . . . .

هذه دعائم البناء ودعائم البيت غير جدرانه وسقفه وأبوابه ونوافذه ومرافقه . . . إلخ .

وشهادة التوحيد ترجمة عن الإيمان القائم فى القلب ، والإيمان معرفة بلغت حد اليقين أو تصديق جازم لايحتمل الريبة ، وانقياد لله لا يقبل ذرة من تمرد .

عندما يشهد المرء أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقد عالن الناس ورب الناس بأنه ارتضى هذا الدين ، ولزم منهجه ، وتبع قائده . . .

ولا تقبل هذه الشهادة من قائلها ما لم يكن لها رصيد قائم فى القلب ، مهيمن على باطن النفس ، ويعنى هذا أن يكون المسلم ذا ضمير يرفض الدنايا ، ويأبى مواقعتها ، ويحذر ربه ويتقى عقوبته ؛ لأنه يفقه قوله سبحانه :﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾(١) ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾(٢) ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(٣) ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٤) .

كما يعنى هذا أن يظاهر المرء دينه وأتباعه وإن اشتد ساعد الخصوم ، وامتد أذاهم وعظم بأسهم ، وتلك حقيقة التوكل المعتمد على الإيمان بالله الكبير ، إنه ينفى العزيمة الخائرة والإرادة المنسحبة ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٥) ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(٦) .

والإيمان مصدر ولاء لإخوان العقيدة وسخط على خصوم الحق ، فالمؤمنون يحبون لله ويبغضون لله ، ولا يكونون أذنابًا أبدًا ولا أشياعًا لأهل الفسوق والإلحاد : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾(٧) إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله رمز لمعان نفسية بالغة الأثر فى توجيه المجتمع كله . .

ويجىء بعد الشهادة إقام الصلاة ، إنه ليس أغدر من إنسان يسمع ويرى بقدرة الله ، ويأكل ويشرب من خير الله ومع ذلك يضن على ربه بساعات قلائل يتذكره فيها .

إننا ننفق الكثير من أوقاتنا فى اللهو واللعب ، ونستكثر لحيظات نقف خلالها أمام الله متعبدين . . والمدنية الحديثة مسئولة عن السعار المادى الذى أذهل الناس عن كل شىء إلا نداء غرائزهم ، إن المرء ينطلق وراء رزقه انطلاق الوحش فى البرية لايهدأ حتى يظفر بفريسته ، ثم يعود فيلتهمها هو وأسرته ، ثم ينطلق لمثلها فى يوم جديد .

(١) البقرة : ٢٣٥ . (٢) آل عمران : ٢٨ . (٣) النحل : ٥١ . (٤) آل عمران : ١٧٥ .
(٥) المائدة : ٢٣ . (٦) آل عمران : ١٦٠ . (٧) المائدة : ٨١ .

وهكذا دواليك حتى ينتهى عمره وهو يلهث وراء مآربه وحدها لايعرف له ربًا ولا يؤدى له حقًا! ما أتفه هذه الحياة ، وما أسوأ عقباها . .

أما المسلم فهو بين الحين والحين يصغى إلى داعى الله يهتف بصوت جهير الله أكبر الله أكبر ، فيلبى النداء ، ويكرر التكبير ويسعى للوقوف بين يدى ربه قانتًا خاشعًا .

والصلاة فى الحياة الإسلامية ليست عملاً فرديًا يهتم به صاحبه وحسب ، بل هى سمة اجتماعية تسيطر على جمهور المؤمنين وتدفعهم إلى التلاقى فى محراب العبادة جماعات متكررة من الفجر إلى العشاء .

ومن هنا جاء التعبير بإقام الصلاة لا أداء الصلاة ، إذ المقصود إتيانها فى جماعة ، والتحشيد لها ، والخشوع فيها ، وإعلاء شعائرها . إعظامًا له ، وإبرازًا لحقه تبارك اسمه .

ونرجئ الكلام فى الزكاة والصيام والحج إلى مكان آخر ، ونتحدث الآن عن الأركان الخمسة جملة لماذا كانت خمسة .

ترى لو كانت أربعة أو ستة أكان السؤال ينتفى؟ لا . والسؤال الدائر يسقط من تلقاء نفسه ، مثل لماذا كان اسم فلان زيدًا ولم يكن عمرًا ، إنه سؤال يتسلسل إلى ما لا نهاية فلا معنى له . . ومع ذلك فهناك إجابة مقنعة فى هذه القضية قدمها الشيخ الكبير الدكتور عبدالله دراز تدور على هذه العبادات خاصة هى شارات الإسلام ومعالمه التى تميزه عن غيره ، وأن غيرها قد يقوم به يهود أو نصارى أو ماديون ، كمكارم الأخلاق مثلاً!! وقد تكون هناك عبادات إسلامية محضة لكنها دون هذه الأركان فى الدلالة والقيمة .

وننقل ما قاله الرجل الذكى رحمه الله . فبعد أن تحدث عن الإيمان وأنه عصب الحياة فى الدين ومصدر الطاقة الكامنة فى أعماله كلها تساءل عن الصلاة والزكاة والصيام والحج لماذا ذكرت دون شعب الإسلام الأخرى! فقال : لأنها أعظم المظاهر وأوضح العناوين على الإيمان بهذا الدين من حيث هو دين سماوى ـ لما فيها من الاستسلام لأمر الله لمجرد أنه أمره دون قصد إلى مصلحة عاجلة من المصالح العامة أو الخاصة ، أما ما عداها من الأعمال فليست لها هذه المنزلة فى الدلالة على الانتماء إلى الإسلام .

ذلك أن الفروع الدينية منها ما هو باطن لا اطلاع لنا عليه كالإخلاص والتوكل والرضا ، ومحبة الخير للغير وسائر ما يبحث عنه علم الأخلاق ، وهذا القسم لا يصلح شعارًا ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلاً عن أن يكون أساسًا لشتى العبادات والمعاملات . .

أما الأعمال الظاهرة فى الشريعة فأنواع ، منها ما يرجع إلى المصالح التى تقتضيها

الفطرة ، كوسائل الحفاظ على الشخص أو النوع من النظافة والستر وطلب الرزق وابتغاء النسل من طريق شريف ، وكالجهاد دفاعًا عن النفس أو العرض أو الحق كيف كان .

ومنها ما يرجع إلى المصالح التى تدركها العقول وتهدى إليها التجارب كقوانين المعاملات وآداب الاجتماع من الصدق والوفاء بالعهد والإقساط فى الحكم ، وبذل العون للمحتاجين والدعوة إلى الخير والضرب على أيدى المفسدين . .

وهذان النوعان لايعد الاستمساك بهما دليلاً على إسلام صاحبهما ، فقد يستمسك بهما من هو على دين باطل ومن لا دين له أصلاً ، استجابة منه لدواعى الفطرة والعقل دون نظر إلى توجيه سماوى . .

بقى قسم العبادات وأعنى بها الأمور التعبيرية التى لها رسوم وأوضاع دينية خاصة لاتهدى إليها الغرائز ولا العقول ، كالصلاة المحدودة بأوقاتها وأعدادها وهيئاتها ، وكالزكاة المحدودة بأنواعها وأنصبتها ومقاديرها ومواقيتها ، وكالصيام المحدود بزمانه وكيفيته وكالحج ، والأضاحى ، والكفارات ونظام التوارث ، والعقوبات المقدرة المعروفة بالحدود ، ونحو ذلك من الأمور التى لاحظ للاجتهاد فى وضعها ولا فى تبديلها وتغييرها مهما تغيرت الأحوال والعصور .

فهذه الأمور جديرة بأن تسمى رموزًا دينية ، وشعائر إسلامية ؛ لأنها لايتعاون فيها مع باعث الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول ، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها أهل دين آخر بصورتها المرسومة فى الإسلام .

لكن منها ما ليس بواجب قطعى عينا كالضحايا ، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقوع شىء من المخالفة لتعاليم الدين كالحدود والكفارات . .

على أن الحدود ونظام المواريث ـ وإن كانا تعبدين ـ إلا أنهما من الأمور الموضوعة لإقامة مصالح الدنيا بالقصد الأول ، وقد يأخذ بهما من ليس على هذا الدين لما فيهما من المناسبة للعقول . . فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون أساسًا لشعائر الدين سوى الأركان الأربعة المذكورة فى الحديث ـ مع الشهادتين ـ لأنها شعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده ، واجبة وجوبًا عينيًا ، مقصودة للشارع قصدًا أوليًا ، موضوعة لإقامة مصالح الدين أولاً وبالذات ، ومصالح الدنيا ثانيًا وبالعرض!

فلذلك كانت لها الصدارة على سائر الفروع ، حتى نظمت مع الأصل الذى هو مبدأ الإسلام ـ يعنى الشهادتين ـ فى سلك واحد وصارت القواعد خمسًا . .

وهذا الكلام للعلامة الشيخ دراز من خير ما قيل فى شرح بناء الإسلام على خمس .

٥.ما مكان التصوف فى الإسلام؟

إذا ذكر التصوف تراءت للعين صور شائهة لرجال يتبعون طرقًا شتى ، وتنتظم فى المناسبات الدينية مواكب لها بغام منكر ، تخدم السلطات الغاشمة ، وتحيى البدع والخرافات ، وقلما ارتفعت لها راية فى ميدان جهاد . .

والحق أن هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلاً ولا كثيرًا .

التصوف ـ سواء كانت الكلمة عربية أو مترجمة ـ يعنى حقائق أخرى جديرة بالدرس والتمحيص . والتراث الصوفى يتضمن أحيانًا قضايا فى ذروة الشرف والسناء ، كما يتضمن أحيانًا أخرى شطحات لا وزن لها ، بل ينبغى اطراحها والنأى عنها .

وأول ما نحذر منه هو التصوف الفلسفى الذى نُقِل عن الهنود واليونان الأقدمين عقائد الحلول ووحدة الوجود ، ومشيًا وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحى الصحيح كما أن هناك تصوفًا ضاهى الرهبانية البوذية والنصرانية ، وأعلن حربًا على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها ، أو استدار للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكدح فيها ، وكون أجيالاً من القاعدين والمنسحبين فى ميادين الحياة شقى بهم الإسلام دهرًا ، ولم ينجحوا لا فى كسب الدنيا ولا فى كسب الآخرة .

إننا نرفض هذا اللون من التصوف ، ونؤكد أن الإسلام يستنكره ، وأظن أن بداهات الفطرة والعلم والارتقاء الإنسانى تعترضه . .

ولكن هناك تصوفًا نبت فى أكناف الإيمان والإسلام والإحسان ، ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفانى فى مرضاة الله ؛ والحس الدقيق بوجوده وشهوده ، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة ، وإن كانت أحوالهم نكدة فيما يرى الناس ، حتى يقول قائلهم : حبسى خلوة ، ونفيى سياحة ، وقتلى شهادة !!

هذا التصوف يحوّل المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة قلبية مشبوبة ، فالتكاليف تؤدى برضا واستحلاء ، لا بتعب ومعاناة ، والمعاصى تترك باستغناء واستعلاء ، كما قال يوسف عندما تعرض لإغراء الملكة وصويحباتها وفرش له طريق الغواية بالأزهار : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(١)!!

وانتقال العلم من تصور ذهنى جاف إلى شعور قلبى رقيق عطاء إلهى جليل القدر ، وقد أشار ـ إليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ⑦ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) . كما أشار إليه النبى ﷺ فى قوله : «ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا» ويقول علماء النفس : إن للشعور ثلاثة مظاهر هى : الإدراك والوجدان والنزوع .

ونقول نحن : من أراد الله به خيرًا جعل إدراكه يقوم على الصدق ، وجعل وجدانه يقوم على العمق ، وجعل نزوعه يقوم على الشوق . .

إننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم أوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتوا من صدق المعرفة ومن ثم يكون نزوعهم حارًا ممتدًا .

وتدبر الآيات فى وصف موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ⑧③ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾(٣) .

وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روى من أن النبى ﷺ كان يعرض ثوبه لبواكير المطر ، ويقول : «هذا مطر حديث عهد بربه..» .

أفكنت ترى جماهير المتدينين؟ أو هل يرتفع علماء الدين إلى هذا المستوى؟

فى قراءاتى وتجاربى رأيت أناسًا على حظ حسن من علوم الشريعة وأحكام الفقه ، بيد أن قلوبهم خاوية من الإحساس اللطيف ، والرغبة فى التسامى ، والحب

(١) يوسف : ٣٣ . (٢) الحجرات : ٧ ، ٨ . (٣) طه : ٨٤ .

للآخرين . . كما رأيت أناسًا فى مشاعرهم لطف ، وفى مسالكهم إيثار لكن يشينهم قصور علمى وفقه قليل فى شرائع الإسلام .

كلا الصنفين مسىء ومقصر! والواقع أن العالم الذى لا قلب له كالشاعر الذى لا وعى له ، بلاء على الإسلام وعائق عن الانتفاع به . .

فالدين عقل وعاطفة ، وعلم وأدب ، ونظر صائب ، وبصيرة نيرة .

ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ، ومتصوفون صفر الأيدى من قوانين الشريعة وضوابطها!!

والراسخون فى العلم سالمون من هذه الآفات ، ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والغزالى وابن الجوزى والرازى وغيرهم يرى رجالا على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبصار العقلى .

واسمع للإمام المدقق ابن القيم وهو يحدو النفوس إلى الدار الآخرة ، ويقول لكل سائر على الدرب :

فحى على جنات عدن فإنها منازلك الأولى ، وفيها المخيم

أو إلى أبى حامد الغزالى الذى أشرف على تفكير أرسطو وأفلاطون ، واستبان عثراته وكشف ما اعوج منه ، ومع هذا الاستعلاء العقلى فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله حتى إذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى!!

وعندى أن تفاوت هؤلاء الأعلام فى آرائهم يرجع إلى تفاوت العلل التى عالجوها ، وتشخيص الأسباب التى أدت إليها ، ذلك إلى جانب ما بين طبائع البشر من خلاف فى الأذواق والآفاق .

والقدر المقبول ، بل المطلوب ، من التصوف يكون فى الميادين الآتية :

أولا : فى دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .

ويلاحظ أن النفس الإنسانية شديدة المكر واسعة الحيلة ، وأنها قد تحقق ما تهوى عن طريق ظاهره الطاعة ، وباطنه إشباع الهوى . .

ثانيًا : التمرس بمقام الإحسان ، وطول البقاء فى نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولا يتم ذلك بتألق ذهنى فى خلوة بعيدة ، وإنما يتم مع التقلب فى البلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة . . إلخ .

ثالثًا : تتبع آيات الله فى الأنفس والآفاق ، ومدارسة الحاضر والماضى ، ومحاولة الارتقاء إلى مستوى الكتاب الكريم والسيرة الشريفة ، فإن الأبواب كلها موصدة أمام من حُرِم التأسى بمحمد ﷺ ، فهو إمام الأتقياء وسيد المربين . .

وفى هذا المجال أذكر أننى أفدت إفادة عظيمة من ابن عطاء الله السكندرى ، وقد شرحت جملة من حكمه فى كتابى «الجانب العاطفى من الإسلام» .

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب «الرافعى» بأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم فإنى ـ مع إكبارى للرافعى وأدبه ـ أرى أن كلمة سعد أصدق ما تكون فى حكم ابن عطاء الله رحمه الله . وأعرف أن أناسًا سيقولون إننى خلطت بين تعاليم الإسلام وشمائل الأتقياء من ناحية ، وتراث الصوفية وتعاليم رجالهم من ناحية أخرى .

ولو صدق هؤلاء فسيكون الخلاف على أسماء لا على مسميات ، ويكون سهلاً ، والمهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادى ، وتشرئب عواطفه إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض .

وأن يطالع أمجاد الألوهية فيما يرى ويسمع ، ويتجافى عن دار الغرور ، ويطمئن إلى دار الخلود!

٦. ما موقف أهل الكتاب فى الإسلام؟

إذا تحدثت - أنا المسلم المحرج فى هذا العصر - عن أهل الكتاب ، شعرت بظلم ذوى القربى ومقدار حزنه فى النفوس . وشعرت بالدهشة للضغائن التى أكنها القوم ضد محمد وكتابه ورسالته ، وما كان ينبغى بتة أن يقابل الإسلام بكل هذه البغضاء ، ولا أن يلقى نبيه كل هذا النكير . . بدأ الحديث عن أهل الكتاب مقرونًا بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم ، وانتظار عونهم فى مواجهة عبدة الأصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فإذا كذب الوثنيون التوحيد ، وخاصموا صاحبه فإن اليهود والنصارى لن يفعلوا ذلك !

وشرحًا لهذا الموقف المرتقب يقول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾(١)! .

وعندما يوغل المشركون فى عنادهم يعتز المسلمون بأن نفرا من أهل الكتاب أيدهم ، وصدق ما لديهم ، ودخل فى دينهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾(٢) .

وربما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الإسلام ، وتحاملوا على نبيه ودعوته ، وتجهموا لما تلقاه الرسالة من رواج هنا أو هناك فما الموقف منهم؟

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٣) .

لكن جمهرة أهل الكتاب - خصوصًا اليهود - رفضوا الاعتراف بالنبى الجديد ، ونافسوا المشركين فى إطفاء نوره ، واقتلاع جذوره ، ووضع العوائق فى طريقه حتى ينفض الناس عنه .

(١) الرعد : ٤٣ .　(٢) القصص : ٥١ - ٥٣ .　(٣) العنكبوت : ٤٦ .

كان من الممكن بمقياس العقل والمصلحة - ترك الإسلام يعرض نفسه على الناس ، وهو لايملك سلاحًا إلا الإقناع المجرد ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾(١) ومن لم يشأ فليدعنا وشأننا وندعه وشأنه .

وتدبر هذا التوجيه الإلهى ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (٢) .

فليرفض الإسلام من كرهه ، فلن تحاول إكراهه على شىء . إن النبى مبلغ وحسب . . لكن أهل الكتاب وقفوا فى جبهة واحدة مع الوثنيين يعترضون للدين الجديد ، ويرفضون مهادنته ولا يأذنون له بالمرور . .

فإذا انشرح بالإسلام صدر ضاقت لذلك صدورهم وتمنوا لصاحبه أن يرتد إيمانه الجديد إلى جاهليته القديمة ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . . . ﴾(٣) .

والغريب أن أهل الكتاب بعد خمسة عشر قرنًا من مطلع الرسالة الخاتمة لايزالون كما هم ، لم يثوبوا إلى رشدهم . تهدد الفلسفات المادية وجودهم ، ويزحف الإلحاد الأحمر على حضارتهم ، وبدل أن يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام المقبل ، يتجاهلون كل شىء إلا ضرورة القضاء على الإسلام وإبادة أهله . . .

سمعت واحدًا من أهل الكتاب يقول : من الصعب تصديق رجل مولع بالنساء ، تزوج تسعًا منهن ، من الصعب تصديق أنه نبى . . . . . !

قلت : ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى بيناته وهو مخمور . .!!

ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى بإحدى قريباته خداعًا أو اغتصابًا .

ومن السهل التصديق بنبوة رجل تعجبه امرأة مجاهد فى سبيل الله ، فيستقدمها ويضاجعها ويضع خطة لقتل زوجها حتى ينفرد بها . . .!!

(١) المزمل : ١٦ .　(٢) الشورى : ٤٧ ، ٤٨ .　(٣) البقرة : ١٠٩ .

هؤلاء فى مواريثك الدينية أنبياء عظام . . أما محمد الذى تزوج بعض الأرامل وعاهدهن على ترك الدنيا وزينتها ، وطلب منهن أن يقمن الليل معه متهجدات ، وما تزوج واحدة إلا لسبب اجتماعى ، وعرض عليهن جميعا مفارقته إن رغبن فى المتاع العاجل ، محمد بعد هذا كله ليس جديرا بالنبوة ، إن الزناة فى منطق العميان أولى بها منه !!!

وتوجد الآن عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الأمة الإسلامية ، وتقترف المناكر للإتيان على رسالة محمد ، وتشويه سمعته ، وإطلاق الإشاعات الكاذبة حوله . .

على أن هنا أناسًا من أهل الكتاب أوتوا سعة فى العلم ، ونزاهة فى الحكم ورغبة إلى الله ، آمنوا بموسى وعيسى ومحمد جميعًا ، ورفضوا أن يبهتوا عباد الله الصالحين ، ويناصبوهم العداء . وقد أشار القرآن الكريم إلى أولئك الصنف الطيب من اليهود والنصارى مُنَوِّهًا بسيرتهم وعدالتهم ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(1) كما قال تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(2) .

ويمتاز هؤلاء ببحثهم عن اليقين ، وعشقهم للحق وازدرائهم للظنون السائدة مهما غلب سلطانها ، وقد التقيت بالدكتور «موريس بكاى» فى ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر وسمعته يتحدث بإعجاب واحترام شديدين عن أسلوب القرآن فى تناوله للحقائق العلمية والتاريخية ، وكيف عُصِم من الأخطاء التى تورطت فيها كتب مقدسة أخرى .

وقد سأله أحد الناس : لِمَ لم يعلن إسلامه؟ فأجاب : قلما أسير إلا متوضّئاً . . !

وقد أسلم بعض المستشرقين ممن غالبوا قيود التقاليد ، ونلحظ أنه إذا أسلم عشرة

(1) آل عمران : 196 . (2) النساء : 162 .

آلاف نصرانى فلن يسلم إلا يهودى واحد! إن النصارى أرق قلوبا وألين عريكة ﴿ . . . ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ . . . ﴾(1) .

وهناك أهل الكتاب خطوا إلى الأمام خطوة واحدة ، فقالوا : إن محمدًا رسول حقا ولكن إلى العرب وحدهم !

وقد ظهر هذا الفريق قديمًا وحديثًا ؛ لأنه تأمل فى سيرة النبى وحبه العميق لله وتفانيه فى نصرته وحرارته فى دعوته ، واستعداده للقائه بأمداد لاتنقطع من العبادات والجهاد ، فاستيقن أن ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب ، فماذا يصنع؟ قال : إنه رسول للعرب حتما!! .

ونحن مع ترحيبنا بكل خطوة سلام من خصومنا نقول : إن هذا الموقف لا يكفى ولا يشفى ، فمحمد يحمل أشفية السماء إلى أهل الأرض أجمعين ، والتنكر لعموم الرسالة قريب من إنكار أصلها . .

والواقع أن المطالع للقرآن الكريم يجتذبه هذا الحماس الجارف فى الحديث عن الله ووحدانيته وأسمائه الحسنى ، وإلحاح محمد - باسم الله - على الخلق كلهم أن يعودوا إلى ربهم الأحد﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(2) أرأيت؟ إنه نذير مبين وحسب! من يرفض هذا الإخلاص الرائع ؟؟

وهناك أهل كتاب يحبسون فى نطاق ما ورثوا لا يعرفون عن محمد شيئًا ، أو يعرفون ترهات من رجال الدين التائهين أو بعض السادة الموتورين .

وتبصير هؤلاء بالحقيقة كلها دَيْن فى أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا بسداده ، ترى متى ينهضون؟ وحساب هؤلاء إلى ربهم! والذى أراه أنهم مكلفون - فى غياب الوحى عنهم - بمقدار ما أوتوا من ذكاء وقدرة على نقد الموروثات الرديئة واتخاذ موقف ما منها .

(1) المائدة : 82 ، 84 . (2) الذاريات : 50 ، 51 .

ولا أظن هذا الموقف ينطبق على أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهرانى المسلمين! والذين جند الاستعمار العالمى نفرا منهم ارتكبوا المذابح واقترفوا المآسى وخانوا الجوار . . . .!

على أن الإسلام وضع شرائع فى معاملة أهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها فى الفصل القادم عند الحديث عن الرسالات السابقة . . .

وهناك حديث يعطى معناه للوهلة الأولى حكما لم يقل به الفقهاء ، ومن ثم فإن قبوله مطلقًا أو رفضه مطلقا لا يجوز! والواجب استبانة معناه الحقيقى كما قرره الراسخون فى العلم!

والحديث من رواية البخارى : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله» فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها . .» مصدر الخطأ فى فهم «أقاتل الناس» فقد طارت أذهان إلى أن كلمة (الناس) تعنى البشر كلهم! وهذا غلط بإجماع العلماء فإنهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى . .!!

لماذا؟ لأن المهتدين من هؤلاء إذا ضربت الحرب بيننا وبينهم ، ونسوا منطق الإيمان والحلال والحرام فى تصديهم لنا ، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين ، بل إذا كسر الله شوكتهم ، بقوا على أديانهم ، وجردناهم من أسلحة العدوان ، وتولينا نحن الدفاع عنهم إذا هاجمهم أحد ، وعليهم ـ والحالة هذه ـ أن يسهموا فى نفقات الحرب .

وهذه ما أبانته سورة التوبة : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(1) . فليست الغاية من القتال إذن أن يقولوا : لا إله إلا الله ، كما جاء فى الحديث!!

فإذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور . فهل يتناول الوثنيين كلهم؟! والجواب لا! ففى حديث آخر صحيح إلحاق للمجوس بأهل الكتاب : «وسع سنة أهل الكتاب» الحق أن الحديث فى مشركى العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله بحق الحياة ، ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موقفا مأخوذا ، وقد منح

(1) التوبة : ٢٩ .

هؤلاء أربعة أشهر يراجعون أنفسهم ويصححون موقفهم ، فإن أبوا إلا القضاء على الإسلام وجب القضاء عليهم ، وقد فصلت سورة براءة هذه القضية فى أوائلها : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾(1) .

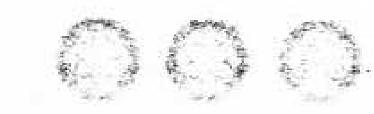
أما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده إلى آخر رمق فلا يلومون إلا أنفسهم .

وقد يتساءل البعض : لماذا جاءت كلمة الناس عامة فى الحديث : «أمرت أن أقاتل الناس» والجواب أن (الـ) كما يقول علماء اللغة للعهد ، تأمل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾(2) فكلمة الناس الأولى : تعنى بعض المنافقين ، والثانية : تعنى بعض الكفار . وهذا هو المعهود فى أذهان المخالطين وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾(3) إن الناس هنا ليسوا البشر جميعًا ، إنهم العرب وحسب!

رأيت فريقًا من الناس يخدعه الظاهر القريب فى هذا الحديث فيتوهم أن الرسول يشن حربا شاملة على البشر ، ولايزال يحرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين .

وهذا فهم ـ كما أسلفنا ـ لم يقل به فقيه ، ولا يستقيم مع مرويات أخرى فى غاية الصحة والوضوح ، ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون «الإمبراطوريات» الاستعمارية التى أظلم بها وجه الحياة قرونًا عدة .

ورأيت أناسًا آخرين يسارعون إلى تكذيب الحديث ، دون وعى ويتخذون منه ذريعة إلى مهاجمة شتى الأحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن ، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق ، وقد رأيت لأولئك القاصرين أفهامًا فى كتاب الله لابد من تفنيدها وإهالة التراب عليها .



(1) التوبة : ٤ . (2) آل عمران : ١٧٣ . (3) النصر : ٣ .

٧.هل الإيمان بالأنبياء الأولين والكتب السابقة ضرورى فى الإسلام، وما حكمة ذلك؟

وجود العالم لم يبدأ ببعثة محمد ، ولا بولادة عيسى ، إن قوافل البشرية تنساب فى دروب الحياة قبل ذلك بقرون طويلة .

ورب العباد لم يدع عباده حيارى خلال هذه القرون ، لقد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾(١) ومن قبل موسى بأجيال اختار إبراهيم وألهمه أن يقول لقومه : ﴿ ... اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑯ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٢) .

ومن قبل إبراهيم بعث نوحًا الذى مكث قرابة عشرة قرون يلح على قومه أن يعرفوا ربهم ويوحدوه ويستغفروه ويسألهم موبخا : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑬ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ⑮ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾(٣) .

إن المعانى التى رددها هؤلاء النبيون خالدة ، والحقائق التى شدوا الجماهير إليها يجب أن يبقى صداها ما بقيت الأرض والسماء .

والنبى الخاتم أكد أنه لا يبنى على فراغ ، وإنما على دعائم مهدها السابقون ، وأنه يذكر الأمم كلها بالأصول التى جهلتها أو تجاهلتها : الله الواحد ، اليوم الآخر ، الطاعة المطلقة لرب الأرض والسماء ، التزام صراطه المستقيم ، الاحتكام إليه فيما شرع ، التعاون على البر والتقوى ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة العدالة وتحقيق الخير . . إلخ .

(١) طه : ١٣ ، ١٤ . (٢) العنكبوت : ١٦ ، ١٧ . (٣) نوح : ١٣ ، ١٦ .

وفى هذا يقول الله للمسلمين : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴾(١) .

ونحن المسلمين نجزم بأن كل رشد آتاه الله رسله الأولين فقد أتى القرآن به ، ثم أربى عليه بعد ذلك ماتفتقر إليه الأجيال اللاحقة مما يسد كل ثغرة ، ويمحق كل شبهة ويرد همزات الشياطين .

إننى أنا المسلم أشعر بولائى لموسى وعيسى ومن قبلهما من أنبياء الله ، ومحبتى لأولئك المصطفين الأخيار نبعت من أن محمدًا عرفنى بهم ، وأعلن أخوته لهم وجهاده معهم فى طريق مشترك !

وفى السورة الأولى ـ بعد فاتحة الكتاب ـ تذكر أصول التقوى كما بينها القرآن الكريم فتشرح على هذا النحو ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ... ﴾(٢) .

ومع هذا التلاقى البين بين الإسلام والأديان الأولى ، فإن تاريخ الحياة مع أتباع الأديان محزن موجع ، قال اليهود : ليست النصارى على شىء وبادلهم النصارى الحكم نفسه ، ثم قال الاثنان معًا : ليس المسلمون على شىء!! وقال الماديون جميعًا : ليست الأديان السماوية الثلاثة إلا خرافة ، وليس أتباعها على شىء !

ويظهر أن النفس الإنسانية تشدها إلى شهواتها خيوط قوية ، وقد يكره المرء أن يظهر عبد غرائزه فماذا يصنع؟

يستبدل بهذه الخيوط أوامر سماوية شريطة أن تحقق له ما يشتهى! فإذا هو ينتمى إلى أحد الأديان ظاهرًا ودينه الباطن عبادة نفسه ، وبلوغ هواه ، وقد يكون التدين الفاسد أضر بالحياة من الجهل بالدين كله!!

وعندما نطالع مسيرة الإنسانية من قديم تفجؤنا هذه المأساة ، ولنتدبر قوله

(١) الشورى : ١٣ . (٢) البقرة : ٢ ، ٤ .

تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾(1) الجملة الأخيرة أزاحت الستار عن أسباب الاختلاف ، والتعادى والتقاتل الذى وقع بين المتدينين إنه البغى . .!!

والإنسان يتحول إلى وحش خبيث عندما يغلف شهوته بالقيم الرفيعة ، ويزعم أنه يقاتل من أجلها والواقع أنه يقاتل من أجل شىء آخر . .!

لنترك هذه التهم فكل دين ابتلى بمستغلين أساءوا إلى الناس باسم رب الناس . ولنشرح تحديد الإسلام لعلاقته بمن سبق من رسل وبما سبق من كتب .

عندما شاء أهل الكتابين السابقين تحكير الهدى على ماعندهم وحدهم ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا . . . ﴾(2) قال الله لأتباع محمد ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(3) .

إن هناك وحدة دينية يدعو إليها النبى الخاتم تقوم على أصول عامة جامعة ، وصحيح أن هناك اختلافًا فى الفروع تنوعت من أجله الشرائع على مر العصور ، لكن الخلاف فى هذه الشرائع ليس ذا بال .

وعلى أية حال فإن شبكة القوانين التى رسمها القرآن ، وأوضحتها السنة هى الطريقة المثلى لضمان المصالح المنشودة إلى آخر الدهر .

ولم يقع التقاتل على هذه التشريعات الفرعية ، إنما وقع التقاتل على أركان العقيدة وأصول الإيمان ، وإن كان الشرود المبدئى قد جر إلى مخالفات أهدرت معالم الحلال والحرام ، وجرأت على اقتراف الربا والزنى والسكر وكثير من الآثام .

ونحن المسلمين المصدقين بنبوة موسى وعيسى ، وبما أنزل الله عليهما من كتب ، نرى أن اليهود والنصارى هجروا ما أنزل الله إليهم ، وتركوا الأيام تجر عليه ثوب النسيان .

(1) البقرة : ٢١٣ .
(2) ، (3) البقرة : ١٣٥ ، ١٣٦ .

ومن هنا أوحى إلى النبى الخاتم أن يستمسك بما أوتى ، وأن يلتزم الإنصاف فى معاملة أتباع أولئك النبين ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(1) ونثبت هنا أدبًا جليل القدر ، التزمه القرآن الكريم وهو يحكى سير الأنبياء الأولين ، وما تعرضت له هذه السير - بعد - من تحريف يتصل بجوهر الإيمان ، فقد ذكر سفر التكوين أن الله تنزل من عليائه وتناول الطعام مع نبيه إبراهيم !!

وقد أبى القرآن مناقشة هذه القضية الغريبة ، واكتفى بذكر قصة ضيف إبراهيم المكرمين على حقيقتها دون تكذيب لأحد من الرواة . .!!

والمعروف أن الله أنزل التوراة على موسى قيل : كتبها له بيده ، وأمره أن يأخذ بنى إسرائيل بأحكامها .

والذى يقرأ التوراة اليوم يجد فيها مشهدًا مؤثرًا لوفاة موسى ، وكيف أنه عاش مائة وعشرين سنة فلم يتغضن له جلد ، ولم يكل له بصر ثم مات ، وناحت عليه نسوة إسرائيل كذا يومًا ، ودفن بعرصات «مؤآب» ولم يعرف قبره!!

وظاهر أن هذا الكلام لمؤرخ كان يسجل حياة موسى بين قومه ، ولكن كلام المؤرخ تسلل بطريقة ما إلى التوراة نفسها ، التوراة التى نزلت على موسى! وأصبح جزءا منها !!

ولم يشأ القرآن الكريم أن يكشف هذا الزيف ، مكتفيا بتقرير العقائد والأخبار الصحيحة ، على نحو ما ورد فى عدد الفتية أهل الكهف ، ما قيمة الجدال الطويل هنا وهناك؟ ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾(2) .

ومع ذلك الخلط فقد اعتبر الإسلام أن ما لدى القوم من مواريث يجعلهم أهل كتاب ، ويجعل مكانتهم أرفع من مكانة الملاحدة وعبدة الأصنام ، وأن ما بقى لديهم من تعاليم سماوية يتيح مخالطتهم ، والأكل من أطعمتهم ، والتزوج من نسائهم وحماية معابدهم وشعائرهم . . .

(1) الشورى : ١٥ .
(2) الكهف : ٢٢ .

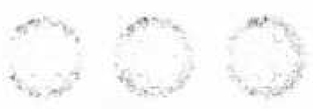
﴿يسألونك : ماذا أُحِلَّ لهم؟﴾ ويأتى الرد ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ...﴾[1] .

والمقصود من هذا كله تذويب الجفوة ، وتفويت الفرقة والتعرف بما لدينا فى جو من السماحة والود . وأحسب أن هذه الحكمة من وراء السكوت المتعمد عن مناقشة مواضع التحريف الكثيرة فى مرويات القوم ، وإنها جزء من نطاق العفو الذى ورد فى قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[2] .

وما أجمل أن يعرض موسى قضية اليوم الآخر فى خطاب الله له ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾[3] والتوراة القائمة ليس فيها ذكر ليوم القيامة أو الجنة والنار . .

وما أجمل أن يعرض عيسى نفسه قضية التوحيد فيقول لقومه : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[4] .

هكذا عرض القرآن النبوات السابقة لتبقى تعاليمها مع النبوة الخاتمة هداية للإنسانية حتى يومها الأخير .



(١) المائدة : ٥ .
(٢) المائدة : ١٥ .
(٣) طه : ١٥ ، ١٦ .
(٤) آل عمران : ٥١ .

٨. ما مفهوم الإسلام عن الحياة والموت؟

نظرت عن كثب إلى الفندق الذى أنزل به ـ وكنت فى أحد أسفارى ـ ثم دار فى نفسى هذا السؤال :

ترى كم شخصًا سكن غرفتى قبل أن أسكن فيها ؟ وكم شخصًا سيحل مكانى بعدما أغادرها ؟ ما أوهى علاقتى بهذه الغرفة . .! وأحسست أن هذه الغرفة ، بل أحسست أن الفندق كله شبيه بهذه الدنيا نظهر بها بغتة ثم نختفى .

إن ناسا كثيرين قروا هنا ثم ولوا .

لقد رأى بعضهم بعضًا كما يرى النزلاء أنفسهم حينا فى صالة الفندق وكل مشغول بشأنه يعيش فى جوه الخاص فما تربطه بغيره إلا نظرة عابرة وبسمة عارضة!

هكذا التقى أبناء كل جيل بأترابهم ، ثم . . . ثم . . انتهوا .

وتذكرت الآية التى وصف الله بها هذه الحياة : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ....﴾[1] وشعرت بأن الدنيا تظفر من اهتمامنا بأكثر مما تستحق!!

هل هذه حقيقة الدنيا . . وترددت شيئاً ما فى الإجابة ثم تأت : على أية حال لا خلود لنا هنا ، إننا راحلون يومًا ، ولكننا نؤثر أن نتناسى ذلك اليوم!

لست أسجل هذه الخاطرة تهوينا لشأن الدنيا إن شأنها يجب أن يهوى عندما تحاول احتواءنا ، وعندما نفقد فيها عزيزًا فنكاد نهلك ، أو عندما نكسب فيها نفيسًا فنكاد نلقى مصير دودة القز التى تختنق داخل ماتنسج بريقها الناعم . . .

والمخدوعون فى الدنيا أعداد فوق الحصر ، إن قتالهم رهيب للحصول على مغانمها وتصارعهم دامى الجوانب للعب منها دون وعى !

وتحت الأقدام فى هذه الساحة الخسيسة أرحام مقطوعة ، وحرمات منتهكة ومروءات ضائعة ، وصداقات منسية ، ومستضعفون ديسوا ، وأشياء كثيرة محزنة .

(١) يونس : ٤٥ .

ما أحقر الدنيا يوم تنال بهذا الثمن، وما أحراها بهذا الوصف الحكيم ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[1] .

لكن للحياة الدنيا جانبًا آخر لابد من بحثه ودراسته، إننا نوجد فيها ونقضى فيها أمدًا لاندرى مبدأه ولا منتهاه، والذى أوجدنا أخبرنا أننا لن نترك سدى، وأنه لم يخلقنا عبثًا !!

إننا أمام عمل جاد وامتحان خطير . .! وإن علاقتنا بالأشياء والأشخاص محكومة بقوانين دقيقة، وإننا خلقنا للبقاء لا للفناء، وإن اليوم بذر وغدًا حصاد .

وإن المكان الممهد والزمان المحدد هما ساحة سباق هائل توشك نتائجه أن تعلن : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . ﴾[2] وإذا كانت الدنيا قنطرة لما وراءها فمن الحماقة محاولة الخلود فيها، أو حصر الاهتمام فى مآربها وحسب !

إن ما يستصحب منها للغد المرتقب هو الحق، والذى يعيش عبد بطنه دابة، وقيمته ما يخرج منه! والذى يسبيه جنون المال والجاه، ويقلقل كل شىء لإثبات ذاته رجل تائه!

كان أبو الطيب المتنبى يرى أن العظمة هى مجد السلطة ونيل الحكم .

وتركك فى الدنيا دويا كأنما — تداول سمع المرء أنملة العشر!!

كان يرى نفسه قمة يجب أن تتوج بالأبهة والسناء، ومالم يتح لأحد! أليس القائل :

وكل ما خلق الله وما لم يخلق — محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى!!

وازن بين غرور هذا الإنسان الذاهل وبين قول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه . . «من مدحك فإنما مدح مواهب الله عندك، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك» . .

كذلك يستكين المؤمن لله، ويعرف نعمته، ويقر بعبوديته، ويمهد لنفسه عند عودته !

(١) الكهف : ٤٥ . (٢) الملك : ١، ٢ .

إن أغلب الناس بهم من نزق أبى الطيب، وشرودهم فى الحياة يرجع إلى ذلك، وما أحوج الناس إلى فهم قوله تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ⑤③ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ⑤④ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] الحياة الصحيحة فى الإسلام أن تعتبر الدنيا لك ولست لها، إن الله لم يخلق الإنسان ليجوع ويعرى ويذل ويخزى كلا إن له حقوقه المصونة لا فى الضرورات فقط ولكن فى المتاع والزينة ! لكن على شرط أن يعرف المنعم ويشكره .

بيد أن أكثر الناس يلهيه التهام ما يطلب عن رؤية مرسله كالحيوان الذى يتبع حامل البرسيم أو الفول، فإذا نفد ما بيده من طعام انصرف عنه ! فقد انتهى الرباط الذى يشده إليه . .!! لماذا يكون بعض الناس كهذه الأنعام ؟ لماذا ننسى من يطعم ويكسو . ولا نذكره إلا إذا ـ احتجنا ؟

إن الله أنبت الحدائق لتبهجنا، وملكنا الأنعام تغدو وتروح إلى الحقول وقال لنا : ﴿ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[2]، ورصع السماء بالدرارى اللامعات، وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾[3] !

ورفض مسالك أهل القنوت الذين يحبون الحياة الخشنة فوق أرض تفور بالبركة والعطاء وقال : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[4] ؟

المعقول ـ بعد هذا الرزق المبسوط ـ أن ننتفع بهذا الفضل الأعلى ونقدر صاحبه حق قدره . .! والحياة الصحيحة فى نظر الإسلام أن تعرف ربك من خلال آفاقها . إن المهندس الماهر يضع بصماته على الآلة المحكمة التى يبدعها، ورب العالمين ـ وله المثل الأعلى ـ أظهر صفاته العُلى فى خلقه هذا العالم الرائع .

وحياتنا نحن البشر فوق ظهر الأرض فرصة لا تتكرر لمعرفة الله، وإنشاء علاقة صحيحة به تبارك اسمه، وأنا لا أتفلسف حين أصف إعجابى بعظمة الله، ولا أذهب بعيدًا! إننى أملأ صدرى بالهواء ثم أقول : سبحان من غلف كوكبنا بهذا الجو الذى تتنفس فيه ألوف مؤلفة من الناس والدواب والطيور، إن هذا الهواء سواء هب ريحا عاصفة أم نسيما على لا شىء عجيب الخلق!

(١) النحل : ٥٣ ـ ٥٥ . (٢) النحل : ٦ . (٣) الحجر : ١٦ . (٤) الأعراف : ٣٢ .

وهذا الماء الذى يلف أرضنا ؟ إن العلماء قالوا : إنه يكون ٨٠٪ من سطح هذه الكرة الطائرة حول أمها الشمس ، ومع جريها الحثيث ما سقطت منه قطرة فى الفضاء ، وكان المفروض أن ينسكب فى كل ناحية! من يمسكه فى بحاره وأنهاره؟ ويجتذبه ليبقى فى قراره؟ إنه الله .

إن الملكوت الرحب الذى نسكن جانبًا ضئيلاً منه يشير إلى ربه ويسبح بحمده ، وعلينا أبناء الحياة الدنيا أن نتجاوب مع هذه الحقائق حتى إذا غادرناها إلى مابعدها كنا أهلا لجوار كريم !

أما إذا عشنا نأكل ونلهو وحسب فالمصير كالح . وقد نبهنا إلى هذه الحقيقة الصارمة ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[1] ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾[2] .

وحق على أهل الإيمان أن يتمكنوا فى الدنيا . ويقدروا عليها بسعة العلم وقوة العمل لأن الله لم يخلق عباده كى يعيشوا على هامش الحياة ، أو يضطرب فى أيديهم زمامها وهو القائل : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[3] .

ولهذا التمكن ثمرتان : الأولى حسن ارتفاق الأرض ، واستغلال خيراتها فى رفاهة الإنسان ومتاعه إلى حين .

والثمرة الثانية : تطويع ما فى الأرض من قوى لدعم الحق ، وإقامة نظام محكم لجعل الأمور تمشى وفق ما شرع الله ، وهذا ما تنصح به الآية الكريمة : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾[4] .

إن الجهلة بالحياة ليسوا أناسًا صالحين! وكيف يكون صالحا من لم يقرأ عظمة الله فى صحاف كونه؟ وكيف يكون صالحًا من ملكه الله الأرض وقال له ولأمثاله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا . . .﴾[5] فعاش ملكا للأرض تافها فوق ثراها وملكته هى بدل أن يملكها؟ وكيف يكون صالحًا من سمح للإلحاد أن يسبقه فى كل ميدان ويهزمه فى كل نزاع؟

(١) المزمل : ١٩ . (٢) النبأ : ٣٩ . (٣) الأعراف : ١٠ .
(٤) الحديد : ٢٥ . (٥) البقرة : ٢٩ .

٩. ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء؟

إنكار الدار الآخرة ليس بدعة هذا العصر ، فمن قديم كان هناك من يكذب الأنبياء ويتهمهم بالجنون لأنهم يؤكدون أن الموتى سوف يبعثون ويحاسبون ويثابون أو يعاقبون! كان أولئك المكذبون يقولون للأمم التى تسمع وعيد الرسل ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1] .

لكن عصرنا امتاز بأنه زعم للنزعات المادية أصلا علميًا ، وأشاع بأن الدين بعيد عن المنطق العقلى!! ومن ثم شاع الإلحاد ، وعاش الكثيرون لدنياهم وحدها ، وقلما تذكر الآخرة فى مؤتمر جاد أو ينظر إليها على أنها حقيقة مقررة ، والذى أراه أن الإيمان بالآخرة فرع الإيمان بالله عزوجل ، فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على إيجاد العالم بعد إفنائه ، وإقامة ساحة عامة لحساب دقيق يلقى فيه كل امرئ جزاءه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2] . إن الفلاح يستطيع أن يزرع الأرض مرة ثانية بعدما حصدها ، والمهندس يستطيع إعادة بيت تهدم ، فما الذى يعجز خالق هذا العالم على إنشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ أجله الذى حدده له؟!

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .﴾[3] !!

لو كان هذا الكلام من خالق الكون ـ وعدًا مجردًا ، ما تأخرت فى تصديقه! فكيف وأنا أرى فى كل لحظة من دنيا الناس خلقًا جديدًا يبرز فيه الإبداع الأعلى

(١) المؤمنون : ٣٦ ، ٣٧ . (٢) آل عمران : ٣٠ . (٣) الإسراء : ٤٩ - ٥١ .

أجلى ما يكون؟ فى كل ساعة من ليل أو نهار تقذف الأرحام بعشرات ومئات من الأجنة السوية الخلق، الدوارة الأجهزة، المتجاوبة مع عناصر البيئة التى ترتقبها، فهى تسمع وترى وتعى وتمضى فى طريقها قدما إلى استكمال وجودها المقدور....

هل صنع الأبوان شيئًا فى هذا التخلق الباهر؟ أعنى من صنع الحيوان المنوى وأودع فيه خصائص الوراثة المادية والأدبية؟ ومن صنع بويضة الأم ومد إليها صفات الآباء والأجداد؟ ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[1].

إن إنشاء الحياة فى عالم الإنسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم فلماذا تستبعد بعثا يتم مثله بين أسماعنا وأبصارنا؟ إن ذلك سر تقريع القرآن للذاهلين عندما يقول: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

إن انتشار الجهالة لايعطيها وجاهة! وإذا كان منكرو البعث كثيرين، فليسوا إلا قطعانا من الغافلين أو المستغفلين !!.

وعلى كل عاقل أن يستمع إلى هذا النداء: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾[3].

إن العدالة لاتتحقق فى هذه الدنيا، فهناك سفلة تبوءوا القمم، وعباقرة توسدوا التراب، وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون.

إن اثنين وسبعين ألفا من عرب فلسطين ومسلمى لبنان قتلوا فى الحرب الأخيرة، فلنفرض أن الله أدال للعرب وارتدت لهم الكرة بعد سنين طويلة أو قصيرة، سيكون الجزارون قد ماتوا، وقد يعفى عن أبنائهم أو أحفادهم ـ كما فعل صلاح الدين ـ وقد يقتص ممن لم يقترف جرمًا !!.

إن القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف، ولها ضحايا يضيعون فى حركتها الدائبة بقول الشاعر:

وقالوا يعود الماء فى النهر بعد ما	ذوى نبت جنبيه وجفت مشارعه
فقلت إلى أن يرجع النهر جاريا	ويعشب جنباه تموت ضفادعه!

(١) الواقعة: ٥٨، ٥٩. (٢) الواقعة: ٦٢. (٣) الإنشقاق: ٦ - ١٢.

من أجل ذلك كانت الآخرة حافلة بالانقلابات المثيرة، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة رب مالك هنا يكون مملوكًا هناك، سيهبط ناس من الأوج إلى القاع، ويرتفع آخرون من القاع إلى الأوج ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾[1].

إن الآخرة حق لأنها تصحيح لأوضاع، ورد لاعتبار، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره إلى حين ـ هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولابد من مراعاته، ولذلك جاء فى الحديث القدسى، فى إجابة دعوة المظلوم «وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين» وجاء فى انتصار المؤمنين على الكافرين ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[2].

لقد تكرر هذا الحين وانتظامه مرتين فى سياق متقارب، لأن الله لايعجل بعجلتنا، ولأن سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود، ولكن وزن الذرة من الخير أو الشر لايضيع أو ينسى.. وحديث الإسلام عن القيامة والحساب تناول مرحلتين: الأولى مرحلة الدمار الذى ينزل بهذا العالم، والانهيار الفلكى الذى يمحو نظامه ويطفى نجومه! وقد جاء فى السنة: «من سره أن يرى القيامة رأى عين فليقرأ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾[3] ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾[4] ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[5]».

ويظهر أن الهول الذى يصحب هذه الاضطرابات الشاملة يغمر الأفئدة بالفزع والرهبة فترى الناس سكارى وما هم بسكارى...

ومجىء الساعة يكون بغتة، والناس ماضون فى أعمالهم العادية، الآكل يرفع لقمته إلى فمه، والبنَّاء يشيد البيت الذى يبنيه، والتاجر يناول البائع السلعة التى يطلبها، وهذا وذاك فى جدالهم ـ حول شئونهم، ومستغرقون فيما يعنيهم! يقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾[6].

(١) الواقعة: ١-٣. (٢) الصافات: ١٧٤ - ١٧٨. (٣) التكوير: ١، ٢.
(٤) الانفطار: ١، ٢. (٥) الانشقاق: ١، ٢. (٦) يس: ٤٨ - ٥٠.

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة الحساب الذى يشمل الأولين والآخرين ، ويحشد أبناء آدم منذ بدءوا حتى انتهوا ، ويستعرض أعمالهم منذ عقلوا حتى ماتوا!!!

قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم فى يوم؟ قال : كما يرزقهم على كثرتهم .

والذى نحسبه نحن أن الزمان سوف ينعدم كما ينعدم الوزن عند رواد الفضاء ، وهل الخلود إلا انعدام الزمان؟ وأن رب العالمين سيجعل الخلق فى حال من الإحساس العام بكل ما أسلفوه فى الدنيا ، وكأن أشرطة مسجلة تمر بأذهانهم ملآى بكل ما كان منهم وحكم الله فيه!

ثم يستعد كل إنسان للانطلاق إلى مصيره العدل ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾(١) .

والجزاء مادى وروحانى معًا ، إنه للإنسان الذى عبد بجسمه وعقله ، أو فجر بجسمه وعقله! ولا يستطيع أى دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته فى وصف الجنة والنار بأنها من قبيل المجاز ، وليس هناك بتة ما يدعو لهذا التعسف فى التفسير .

والنظر إلى مادية الإنسان بأنها معرة ، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تأثر بفلسفات خيالية لا وزن لها .

نعم إن مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى ، معها الرضوان الأعلى والاستغراق فى شهود أمجاد الألوهية ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾(٢) جعلنا الله من هؤلاء المكرمين .

(١) هود : ١٠٣ - ١٠٥ .   (٢) المطففين : ٢٢ - ٢٤ .

١٠. ما البرزخ؟ وما دلالته فى الإسلام...؟

المعروف عند جمهور المؤمنين أن الإنسان مخلوق من عنصرين متباينين .

جسمه من هذه الأرض خلق ونما ، وروحه من نفخة من الله سبحانه وتعالى ، فهو ليس حيوانا وليس ملاكا ، وفى كيانه تتجاور المتناقضات ، من غرائز مادية ، وسبحات عقلية وعاطفية!

وعندما يموت يرجع إلى الأرض ما نشأ منها وتغذى على نتاجها ، يرجع هذا الجسد ليبلى ، ويفنى منه ما شاء الله ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾(١) .

أما الروح فله مستقر آخر ، لاندرى بدقة مكانه ، لاندرى كذلك ما علاقته بالجسد الذى كان فيه ، هل انقطعت صلته به انقطاعًا تامًّا؟ هل - عند البعث - يعود إليه هو أم يعود إلى جسد شبيه به؟ هذه أسئلة لانبت فى الإجابة عنها ! إنما الذى نبت فيه أن الشخصية الإنسانية لاتفنى بالموت! وإنها رحلت من عالم إلى عالم آخر ، وإنها بقيت كاملة الحس تامة الوعى ، وإنها إذا فقدت الأذن والعين فلم تفقد السمع والبصر ، بل قد تكون أسمع وأبصر مما كانت على ظهر الأرض . . . إننا قد نكون مهرة فى المنطق المادى ، أما المنطق الروحى فعلمنا محدود بل صفر . . .!!!

وقد أخبرنا الله أن الشهداء الذين قتلوا فى معارك الجهاد ومزعت أجسادهم ، موتى فى نظرنا نحن فقط لأنهم غابوا عنا ، أما فى حقيقة الأمر فهم أحياء .

وقد أسند إليهم خمس صفات تستحق التأمل .

هم أولاً أحياء لا هلكى! **وثانياً** فى جوار كريم لأنهم عند رب العالمين ، **وثالثاً** فى منزل خصب حافل بالخير يدر عليهم الأرزاق ، **ورابعاً** هم فرحون بما نالوا ، مغمورون بالعطاء الأعلى ، **وخامساً** مطمئنون على أقاربهم وأصدقائهم الذين يخلفوهم فى الدنيا ، إنهم على حق وإلى خير ، وقربها سوف يجتمع الشمل ويلحق أحياء الأرض بأحياء السماء !

(١) طه : ٥٥ .

هذا ماتذكره الآية الكريمة :﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] .

صحيح أننا لانشعر بهذا كله ولا بعضه! وقد صرحت سورة أخرى بذلك ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[2] .

إن عدم شعورنا لأن أجهزة الاستقبال السمعى والبصرى عندنا محدودة القدرة ، وغيرنا من الكائنات يرانا ولا نراه ، وكما قال العلماء : عدم العلم ليس علما بالعدم إنه كما يسافر أحدنا من بلد إلى بلد يسافر الموتى من مكان إلى مكان ، حيث تبدأ الحياة الآخرة ، ويبدأ الحساب الرهيب تمهيدًا للمحاكمة الكبرى يوم النشور . . .

وهذه المرحلة المتوسطة هى البرزخ كما ذكرت الآيات ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[3] ويشبه ما يلقاه الفجار فى البرزخ ما يفعله رجال الشرطة بالمجرمين عندما يقعون فى قبضتهم . . هناك تحقيق ابتدائى سريع ، ثم يرمى المتهمون فى السجن ريثما يقدمون للقضاء فى محكمة كبرى . . .

ويشبه مايلقاه الأبرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤلفا تقررت مكافأته ، أو عبقريًا منح جائزة سنية ، إنه يجاء به مكرما ويستريح فى إحدى الغرف الأنيقة ريثما يأخذ ما تقرر له . . .

والذين يفعلون الخير أو الشر ليسوا سواء فى مراتبهم ، فمن الأشرار من يتفتح له شواظ من نار يشوى وجهه حتى يوم اللقاء! ومن الأخيار من يتذوق النعيم من أول يوم كما جاء فى وصف الشهداء أن أرواحهم معلقة فى قناديل تحت العرش ترد أنهار الجنة وتطعم من ثمارها . . .!

المهم أن الموت رحلة من حياة أرضية محسوسة لنا إلى حياة غيبية نسمع بخبرها . . وحسب ، وقد كان الأصحاب الكرام يعرفون ذلك معرفة يقين ، فلما حضرت «بلال» الوفاة صاحت امرأته :

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .   (٢) البقرة : ١٥٤ .   (٣) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

واكرباه . .!! وصاح المحتضر المشرف على الموت : بل وأطرباه ، غدًا ألاقى الأحبة ، محمدًا وحزبه! والواقع أن الموت نقله إلى عالم مستقر مطرد النمو ، إن أودية الموت ، من بدء الخليقة تستقبل الأجيال المدبرة ، الأجداد ثم الآباء ثم الأولاد ثم الأحفاد ، وهكذا من قديم ، فعالم الموتى يتسع باستمرار والنتائج تتكشف فيه ، ومعادن الناس تعرف . . .

لكل أناس مقبر بفنائهم   فهم ينقصون والقبور تزيد

وليس القصد من زيادة القبور أن مبانيها تزيد ، وإنما القصد أن اللاحقين يتبعون السابقين ! مددًا بعد مدد وهؤلاء وأولئك فى انتظار القيامة الكبرى حتى يجيء أوانها . .

وتبدأ حياة البرزخ بلونيها من ساعة مفارقة الروح للجسد ، وتدبر قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1] .

واليوم ـ لا الغد ـ يبدأ العقاب على ما مضى من افتراء وكبرياء .

إن الإنسان طرق الدنيا عاريًا ، ولقد تقلب فيها ثم ها هو ذا ، يتركها كما جاءها ، لامال ولا جاه ولا عزوة ولا سلطان ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . . . ﴾[2] .

ويظهر بقدر أنه ما يكون المرء طاغية فى حياته الأولى ، يكون ترصد الزبانية له وارتقابهم لمقدمه كيما يؤدب على غلوه وفساده ، فتكون مراحل البرزخ الأولى لطمات تتناوله من كل جهة ، وإهانات تلفه بالخزى والعار ، وذلك كله أيام القبر الأولى ، أعنى أيام البرزخ ، وليس يحتاج الأمر إلى مساءلة فما محلها إذا كان المجرم قد لحقته الوفاة وهو يقاتل الحق ويخاصم حملته من المرسلين والصالحين ترى ذلك فى قصة الفراعنة : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ

(١) ، (٢) الأنعام : ٩٣ ، ٩٤ .

فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[1] وتراه كذلك فى كبراء قريش الذين أدركتهم مناياهم وهم يقاتلون النبى ﷺ فى معركة بدر قال تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[2] .

وقد رميت جثث المشركين البغاة فى بئر ، ووقف النبى بعد دفنهم يقول بصوت جهير : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ وهو يناديهم بأسمائهم! فقال له أصحابه : أتنادى قومًا جيفوا؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لايجيبون!

إننا لانشعر بما يلقاه الراحلون عنا ، بل لا نشعر بشىء من عالم الغيب وهو عالم مديد رهيب!

ولن تتأخر نفس أبدا عن أخذ طريقها إلى البرزخ! وملاقاة الجزاء المعد لها ، مهما كان حب الأقربين والأصدقاء والأتباع! وتدبر قوله تعالى يصف حالة المحتضر وعجز من حوله :﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3] .

لا أريد تفسير الآيات ، ولا ذكر من عجزنا عن إبصاره وهو أقرب إلى الميت منا نحن الملتصقين به الحانين عليه!! اللهم إن البشر كلهم أصفار أمام سلطان الموت ، وأمام ما يقترن الموت به من مبادئ الحساب .

إن الموت فضح الحياة ، ومع ذلك فحبنا للحياة يعمى ويصم! وذهولنا عن الجزاء المرتقب أدهى وأمر! ذلك ، وقد ورد فى الآثار أن الموتى لايرجعون إلينا ، بذلك سبق القول من الله ، وبذلك أجيب شهداء أحد .

ومن ثم فالزعم بأن الأرواح تستحضر فى مجالس خاصة وتقص ماتلقى على الحضور يكاد يكون رجمًا بالغيب وقد تتبعت بعض ما نسب إلى هذه الأرواح الحاضرة من كلام فوجدته تخليطًا وقد يكون من عبث الجن واستهزائهم بالبشر!!

(١) غافر : ٤٦ . (٢) الأنفال : ٥٠ ، ٥١ . (٣) الواقعة : ٨٣ - ٨٧ .

١١ . ما طبيعة الجزاء الأخروى؟ وهل هو روحى أم مادى؟

هل خلق الإنسان من روح وجسد شىء يعاب؟

كذلك يرى بعض الناس! بل كذلك قال أعداء الأنبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله ، مقترحين أن يكون الرسول ملكا ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾[1]!!

وكما استنكروا أن يكون المرسلون بشرًا يأكلون ، استنكروا عليهم الزواج ، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الإنسان الكبير ، وعليه إذا أراد الكمال أن يكبتها .

وقد رد القرآن هذه المزاعم ، وبين جل شأنه أن المصطفين الأخيار من عباده كانوا رجالاً ناضجى الغرائز ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[2] .

ومع ذلك فإن بقايا من منطق الجاهلية القديمة لاتزال عالقة بأذهان الكثيرين ممن يحسبون السمو البشرى لا يتم إلا بإعلان حرب مجنونة على البدن توهى قواه وتدوخ غرائزه .

بل سرى ذلك الفكر إلى بعض المذاهب الدينية ، وانبنى عليه ، إن التقوى فى هذه الحياة تعنى الرهبانية وأن السمو فى الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك فلابد أن يكون النعيم الموعود روحانيًا محضًا وكذلك العذاب المرصد للأشقياء!!

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة ، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة ، فإنه رفض كل هاتيك المقدمات والنتائج ، وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الإنسان كائنا متميزا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية فى شخصيته ، بها جميعا يسمو أو يهبط وبها جميعًا يثاب أو يعاقب .

أو كما يقول الأستاذ العقاد : «ليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنسانى إلى ما دون طبيعته ، ولكن مما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والتبعة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة

(١) الفرقان : ٧ . (٢) الرعد : ٣٨ .

الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه الأمانة هى التى رفعته مقامًا فوق الملائكة ، أو هبطت به إلى زمرة الشياطين» .

ليس الهبوط أن يشتهى الإنسان طعامًا أو امرأة . إنما الهبوط أن يأكل المرء من سحت ، أو يتصل بمن لا تحل له .

فإذا طعم من حلال ، أو اتصل بأنثى لتكون زوجة يسكن إليها ، ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شىء فى ذلك أبدا .

لقد أخطأ كثير من المنتسبين إلى الدين فى احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامى لايحصل إلا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الأخروية لا وجود للبدن فيها ، وأن النعيم أو الجحيم معنويان ، وحسب!!

وقد سرى هذا الخطأ ـ كلا أو جزءاً ـ إلى بعض متصوفة المسلمين ، فاعتنقوه ، وحسبوه دلالة ارتقاء ، وتجرد ، فظلموا بهذا المسلك دينهم ، وأوقعوا خللا سيئا فى موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز .

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة فى الجور على الطبيعة البشرية وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة ، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلبا لجنته ، أو تدع عصيانه خوفا من ناره حتى توهم الناس أن الأمل فى الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين!!

وهذا الضرب من التفكير لايمكن وصفه بأنه تفكير إسلامى ، إنه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما نحتكم إلى العقل والنقل على سواء .

ولنبدأ بالنقل . . . يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء ، فيذكر لنا أن رجلا مؤمنا بحث عن صاحب له كان ظاهر الإلحاد والفسوق ، فوجده قد استقر فى سواء الجحيم! فحمد الله إن لم يتأثر به : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾[1] .

(١) الصافات : ٥٦ ـ ٦١ .

النجاة من النار أمل ضخم لمثله يعمل العاملون ، فكيف يجىء أحد من الناس ، رجلا أو امرأة ليقول : بل هو أمل تافه؟

ويقول الله جل جلاله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[1] .

فى الرحيق المختوم يسقاه قوم تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، فى هذا الجزاء الجزيل ينبغى أن يتنافس المتنافسون! فكيف يجىء إنسان رجلاً كان أو امرأة ليقول : لا أعبد الله طلبًا لشىء من ذلك .

إن هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الأعلى ، أو العقاب السرمدى .

إن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادى والآخر معنوى ، فالمادى تكريم للإنسان يفيض من التجلى الإلهى يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤية .

وبديهى أن المتاع الثانى أكبر من الأول ، كما قال جل شأنه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2] .

ولكن هل هناك فواصل ـ فى هذا الكيان البشرى ـ بين الإحساسين أو أن الإنسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعا؟

إن اللذة والألم قوانين إنسانية صارمة فلم الطعن فيها؟

ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية ، لكفاها ذلك ، ولاحترمناها من أجل هذه النسبة! ولا يأبى الكرامة إلا لئيم ، فكيف ـ وهى إلى جانب ما وصفناه ـ تلبية لحاجة طبيعية يحسها كل إنسان ، حاجة ذلك البدن الذى يضيره الحرمان ، ويضنيه الغل والذل ، حاجة ذلك البدن الذى يكره الجوع والعطش والعرى والهوان .

(١) المطففين : ١٨ ـ ٢٦ . (٢) التوبة : ٧٢ .

أمن أجل فكرة خيالية نجيء إلى مئات الآيات الصريحة الواضحة ، فنحاول صرفها عن ظاهرها والتمحل في تأويلها وإفساد الآثار التربوية المقترنة بها .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(1) .

ماذا يبقى من آيات القرآن بنجاة من التأويل والإبطال إذا تمت هذه المحاولة .

إن الله وجه إلى نبيه هذا الأمر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾(2) .

ووضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾(3) .

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرئ يرفض عبادة الرغبة والرهبة ويزعم أنه لا يخاف من النار ولا يحب الجنة ، وأنه - إن عبد - فإنما يعبد ابتغاء وجه الله !!

ما هذا اللغو؟ وهل الوجوه الناضرة بنظرها إلى الله تظفر بذلك في قعر جهنم ، أم تظفر بذلك في حدائق الجنة؟

قال لي أحد المتصوفين : إن من الخساسة أن تعبد الله منتظرًا أجرًا . فقلت : من العبودية أن تستبشر بفضل الله ، وأن توجل من عقوبته ، وأن تعرف قدرك وتلزم حدك! أين تريد أن تضع نفسك؟

إن الله قال عن نبيه إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(4) .

فهل أنت فوق الأنبياء استغناء عن الأجر الإلهي؟

وقال عن عباده المؤمنين الموفقين : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾(5) .

ووصف عاقبة الصادقين المضحين بأنفسهم في سبيل ربهم فقال : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾(6) فهل أنت في مكانة أخرى غير ما أعد الله للشهداء والصالحين ، مكانة الزاهد في أجر أو الرافض له؟ ما هذا الغرور؟

(1) الأنعام : 15 . (2) الأنبياء : 90 . (3) آل عمران : 185 .
(4) العنكبوت 27 . (5) الأحزاب 44 . (6) الحديد : 19 .

لقد وصف الله أولى الألباب بأنهم : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(1) .

فهل يرفض أن يكون من أولى الألباب إلا البُلْه؟

ولقد أهاب الله بخلقه أن يسارعوا إلى جنة ﴿ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(2) فهل يكره أن ينتظم في عداد المتقين إلا الحمقى؟

إنني أطلب من إخواننا الذين يكتبون في التصوف أن يدمنوا النظر في كتاب الله ، وأن يستوحوا مايستجيدون من معان وغايات ، وبذلك وحده ينصفون أنفسهم وطريقهم ، أما ترويج فكرة لرجل أو امرأة تبتعد عن هذا الضوء الكريم فأمر لا يستساغ ، ومن حقنا أن نرفضه .

لقد سمعت أشعارًا تنسب إلى رابعة العدوية ، بل حكى الرواة عنها - والعهدة عليهم - إنها لما سمعت التذكير بفواكه الجنة وخيراتها ، قالت : لسنا أطفالا ، فنغرى بهذه الأشياء ، وسواء صح ما نسب إلى هذه السيدة أو بطل ، فنحن كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في فاطمة بنت قيس - وهي صحابية أفضل من رابعة - «لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت»!

إن الجنة وعد الله لعباده فنعما هي ، وشكرا لمن أعدها للمتقين ، وهنيئا لمن يصير إليها ، يمرح في بحبوحتها ويسعد بربه الذي طالما صلى وصام من أجله!!

إنه في هذه الجنة يشهد من كان يعبده بالغيب ، ويتلقى فضله في قلبه وعلى بدنه . لذات مادية معنوية متشابكة لا انفصام بينها ، ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾(3) .

ونحن نلفت نظر المفسرين ألا ينخدعوا بما شاع في الديانات الأولى من أوهام أو بما نسب إليها من أفهام فإننا ورثنا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . .

(1) آل عمران : 191 . (2) آل عمران : 133 . (3) الإنسان : 20 - 22 .

١٢. ماذا عن القضاء والقدر؟ وكيف نوفق بين الآيات التى تدل على أن الإنسان مختار، والأخرى التى تدل على أنه مجبر؟

يقول الله تعالى مبينًا عن حكمته في خلق العالم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[١] أى إن هناك اختبارًا كبيرًا مفروضًا على الناس يتحقق بعده ـ مصيرهم !

ما هذا المصير؟ يقول جل شأنه فى آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٢] هناك مسىء ينتظره العقاب ومحسن ينتظره الثواب!

وتلك عدالة لا مطعن فيها! بيد أن بعض الناس يقول : هذا الامتحان مزور ، وهذه النتائج مغشوشة والذى حدث أن الله هيأ للجنّة أناسًا وأجرى الأمور كما شاء وستر مشيئته وراء فصول هذه التمثيلية الهازلة !!!

الله يقول : إنه أرسل للبشر رسلا يدلونهم على الصراط المستقيم ، وقبل أولئك المرسلين منحهم عقولا يحسنون بها التفكير ويستطيعون بها الاختيار ، وقال لهم : إنى أقطع بهذا كله أعذاركم . . . أن تقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[٣] .

أو تقولوا : ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[٤] .

لن يقبل من أحد كلام بعد هذا البيان! ومع ذلك يجىء أناس معتوهون يقولون : لاشىء إلا الله لا عمل إلا الله ، أصابعه وراء كل شىء ، وبقى أن يقولوا : ما فى الجبة إلا الله ، لا موجود غيره ، نحن وهُم ما نصنعه وهْم!!

وأعرف أن وراء هذا التماوت وإنكار الإرادة البشرية والقدرية البشرية من يزعم

(١) هود : ٧ .   (٢) النجم : ٣١ .   (٣) الأعراف : ١٧٢ .   (٤) الأعراف : ١٧٣ .

التقوى ويدعى التصوف ، ولقد ظل أولئك يتماوتون حتى ماتوا أدبيًا ، وتحولوا إلى دواب يمتطيها المستعمرون ، ويذللونها لمآربهم!

بحثت عن السبب فى هذا الكذب ، فوجدته أحيانًا رغبة البعض فى أن ينحرف ثم يرمى بالتبعة على القدر القاهر !

ووجدته أحيانًا أخرى سوء الفهم لآيات القرآن الكريم ، وجنون الجدل الذى مس بعض العلماء ثم نضح على جماهير الغوغاء .

وربما نشأ هذا التعلل المردود عن الخلط بين مواطن الاختيار الحق ومواطن الجبر القاهر ، فإن الإنسان يحيا بين جبر واختيار فى كيانه الداخلى وفى حركاته الخارجية!

إن قلوبنا تدق دون استئذان وتمضى فى أداء وظيفتها دون تدخل من إرادتنا ، أفكذلك ألسنتنا حين نتكلم؟

وقد يكون بعضنا أبيض الجلد والآخر أسوده! أيسأل عن هذا التلوين كما يسأل الإنسان عندما يحسد ذا نعمة أو يزدرى ذا عاهة؟

وندع هذه النماذج للقدر الظاهر والاختيار الحر ، ونسوق أمثلة مما تشترك فيه الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية ، فإن هذا الاشتراك هو غالبا المهرب الذى يلجأ إليه الجبريون ويسيئون فيه تفسير النصوص .

إننا نستغل الكهرباء فى بيوتنا للإنارة والإذاعة والتبريد والتسخين ، فتصور ساكنا جاءه المحصل يطلب منه ثمن ما أفاد من كهرباء ، فقال له : إن التيار مر فى الأسلاك من عندكم ، والمصباح عندى لايمكن أن يضىء من ذاته ولو بقى دهرًا! يقول له المحصل : ماذاتقصد؟ يقول : لا أدفع ثمن شىء أنتم السبب الأول فيه! يقول المحصل : إنك تحرك المفاتيح فتسمع الإذاعة ، وتنير المنازل . . . إلخ يقول له الساكن : لولا التيار الذى أرسلتموه ما تم شىء . . . هكذا يقول بعض الناس لله : لولا إرادتك ما كان شىء ، فلماذا أحاسب؟

وتصور فلاحًا ـ كما قلت فى كتاب لى ـ زرع حشيشا أو أفيونا ، أو أى نبت مخدر ، ثم وقف أمام القضاء يدافع عن نفسه يقول : كيف أحاسب على مازرع الله؟ صحيح أنى وضعت بذرة تافهة ، لكن من الذى نماها وحملها ثمرها؟ إنه القائل : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[١]؟

كثير من الناس يعالج قضاياه الدينية بهذا المنطق!

(١) الواقعة : ٦٤ .

نحن نعلم أن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المسجد أو إلى الخمّارة بقى قلبه يدق بقدر الله ، وبقى جهازه العصبى يصدر أوامره إلى الأقدام لتتحرك بقدر الله ، وبقيت الأرض دون خسف ولا زلزال باسم الله! فهل معنى ذلك أن الله هو الذى دفع هذا إلى المسجد دفعًا ودفع ذلك إلى الخمّارة دفعًا .

كلا كلا! إن للإنسان إرادة حرة ، بها كلف ، وبها صح اختياره ، وبها تم جزاؤه . وكون الله أعانه على ما أراد لنفسه ، أو أنضج له ما بذر فى أرضه ، أو أمده بالتيار الكهربى الذى أنار بيته لاينفى مسئوليته التامة عما فعل!!

الإرادة ميزة محققة مؤكدة فى الكيان الإنسانى ، بها حمل أمانة التكليف ، وبها تميز عن الجماد الأصم والحيوان الأعجم ، وبها يعلو أو يهوى ويشكر أو يكفر!

وعندما يتجه المرء - بمحض اختياره - إلى الإحسان والإساءة فإن تيار الإرادة المبعوث فى أرجاء الوجود طيع بين أصابعه ، إن شاء أضاء فمشى فى النور ، أو أطفأ فخبط فى الظلام .

وآيات القرآن تؤكد هذه الحقائق ، ويجب أن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويصدقه ويكمله!

إذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ . . ﴾[1] فلنسأل أنفسنا : من الذين يشاء الله إضلالهم؟ ولنسمع الإجابة من القرآن نفسه ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[2] ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[3] ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[4] .

ليس الأمر إذن لىّ عنان رجل صالح كى يتعرض لعذاب الله ، لأن الله شاء إضلاله وتعذيبه ، كلا ، وحاشا للبر الرحيم ، العدل الكريم أن يفعل ذلك .

هذا امرؤ اتجه إلى الشر فدفعته الأقدار فى طريقه الذى اختاره ، وهل يجنى العنب من بذر الشوك؟

وكلما أوغل الشرير فى الطريق زاد سمك الغشاوة المضروبة على بصيرته ، فيظلم القلب وتعجز أهل الأرض عن إنارته ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[5] وهكذا يصنع الله بالمجادلين فى آياته ، المستكبرين على الحق ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[6] .

---

(1) المدثر : ٣١ . (2) إبراهيم : ٢٧ . (3) الزمر : ٣ .
(4) غافر : ٣٤ . (5) المطففين : ١٤ . (6) غافر : ٣٥ .

الأساس أن هذا الذى شاء الله إضلاله ، أضل نفسه أولا ، فأتم الله له مراده كما قال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[1] وكما قال فى موضع آخر ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ . . . ﴾[2] .

ومن السفاهة الظن بأن الله أزاغ طالب هدى . أو أضل من اتبع سبيل المؤمنين!

وكما يشاء الله إضلال هؤلاء يهدى إلى الحق من ابتغاه ونشده : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[3] وقال تبارك اسمه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾[4] وقال : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[5] وقال : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾[6] .

إن المشيئة الإلهية ليست رمزًا للفوضى ، وعندما يقول الله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾[7] فالأمر كما شرحنا وكما شرحته آيات أخرى مثل ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾[8] أى يزيده حيرة وعمى فيستحيل أن يعينه أو ينقذه أحدا! ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾[9] فيستحيل أن يضرهم أو يتسرد بهم أحد بعد هذا العون الأعلى! حيث يكون التكليف الإلهى تكون الإرادة الحرة ، وتكون المسئولية الخلقية والجنائية فى الدنيا والآخرة!

فإذا انعدمت الإرادة لسبب ما فلا مسئولية البتة ، وكيف يكلف الإنسان بما لايطيق والله سبحانه يقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[10] .

قال لى أحدهم : كيف يكون للإنسان اختيار وإرادة الله نافذة فى خلقه جميعا؟

قلت : إن الله فاوت بين خلقه ، فهناك فارق بين الجدار والحمار والإنسان! الجدار لايحس والحمار لا يعقل ، والإنسان يحس ويعقل ، وله ميزة فى تكوينه تجعل له معاملة أخرى غير معاملة الجدار والحمار!!

---

(1) الصف : ٥ . (2) النساء : ١١٥ . (3) محمد : ١٧ .
(4) يونس : ٩ . (5) التغابن : ١١ . (6) الرعد : ٢٧ ، ٢٨ .
(7) الزمر : ٣٦ ، ٣٧ . (8) مريم : ٧٥ . (9) مريم : ٧٦ . (10) البقرة : ٢٨٦ .

إن معاملتى لسائق السيارة غير معاملتى للسيارة نفسها ، الفارق واسع بين القائد والمقود والراكب والمركوب!! والمساواة بينهما فى التكليف حمق .

وذكر لى آخر قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾(١) .

وقال : أليست هذه الآية نصا فى سبق الهداية الإلهية والإضلال الإلهى؟ قلت له : أنت واهم تدبر ختام الآية الكريمة تجد مفتاح المعنى الذى غاب عنك ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ .

إن الرجس الذى خنق صدورهم نشأ عن عدم إيمانهم ، فلما رفضوا الإيمان وغصت به حلوقهم جوزوا بهذا الضيق والحرج ، أما الذين رضوا بالحق واستراحوا إليه فقد استحقوا الهداية العليا وكوفئوا بشرح الصدر .

ذلك ، والاختيار بين النهجين يصحب المرء فى كل يوم ، بل فى كل لحظة وهذا هو السر فى أننا نطلب من الله الهدى فى صلواتنا اليومية نحو عشرين مرة بالليل والنهار .

إن ظروفا هائلة تحيط بنا لاتعرف إرادتنا ولا قدراتنا ما تصنع بإزائها ، وما أشبه الإنسان بزورق هش الصنع ، يعوم فى بحر لجىٍّ يغشاه موج من فوقه سحاب هنا يتشبث الإنسان بالتوفيق الإلهى ويسأل ربه النجاة .

ومن العقل أن نميز بين الأقدار التى تحيط بنا وتتحكم فينا ، والأعمال التى طولبنا بها ونسأل غدًا عنها!

ورأى أن إنكار الاختيار البشرى فرار من وظائف العبودية ، واتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة . ما الذى تحاوله بهذا المسلك؟ يقول الله سبحانه : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(٢) ثم يقول : ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾(٣) ثم يقول عن الجزاء الأخير ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾(٤) فأين الظلم أو الجبر فى هذا الصنيع؟

(١) الأنعام : ١٢٥ . (٢) يونس : ٢٦ . (٣) يونس : ٢٧ . (٤) يونس : ٣٠ .

١٣. مادور المسجد فى الإسلام؟

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ...﴾(١) أحيانا أتصور أن الرفع هنا ليس للدعائم والجدران إنما هو للساحات الطهور التى تخصصت للركع السجود ، فبعد أن كانت أرضا عادية يغشاها أى إنسان أضحت أرضًا لا يدخلها إلا متوضئ ، وبعد أن كانت لأى غرض عادى أضحت همزة وصل بين الناس ورب الناس ، ومهادًا للمعراج الروحى الذى ينقل البشر من مآربهم القريبة إلى مناجاة الله وتسبيحه وتمجيده!

أليس هذا ارتقاء معنويا للأرض نفسها؟ أحسست ذلك وأنا أطالع ما جاء فى السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ دخل ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة فقال : **«ياأبا أمامة، مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟» قال: هموم لزمتنى وديون يارسول الله! فقال له: «ألا أعلمك كلمات! إذا قلتهن أذهب الله عنك همك، وقضى دينك؟» قال: قلت: بلى يارسول الله.**

قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال...» فقلت ذلك فأذهب الله عنى غمى وقضى دينى.

هذا رجل أحرجته الأيام ، وبدل أن يذهب إلى بيت واحد من الأغنياء يستجديه ، ويرقب الفرج عنده على نحو ماقيل :

يسقط الطير حيث ينتشر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء!

ذهب إلى بيت الله يرجو جداه ، وينتظر نداه! فلم يخب سعيه ، ولم يطل همه . . .!

لقد نفعته كلمات تعلمها من صاحب الرسالة غيرت نفسه وحياته . . .

وإذا كان الرسول قد استغرب وجود الرجل فى المسجد فى غير وقت صلاة فإنه عزم على المسلمين كافة أن يثوبوا إلى المسجد وقت الصلاة وقال : **«إن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة».**

(١) النور : ٣٦ .

وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحطت عنه خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه، تقول: اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة».

والواجب أن تتوطد صلة المؤمن بالمسجد، وأن يكثر التردد عليه صباحا ومساء، بل ينبغى أن يتعلق به قلبه وأن يزداد له حبه.

قال عبدالله بن مسعود: لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض! إن كان المريض ليمشى بين الرجلين حتى يأتى الصلاة! وقال:

إن رسول الله علمنا سنن الهدى، وإن سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه، قال عبدالله: وما منكم من أحد إلا وله مسجد فى بيته، ولو صليتم فى بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم...

وجمهور الفقهاء يرى الجماعة فى المسجد سنة مؤكدة، ولا ريب أن التجمع نزعة أصيلة جادة فى تعاليم الإسلام، وأن الجماعة من شعائره العظمى.

والإسلام يحارب بذلك التدين المنهزم الفار من الحياة العاجز عن مواجهتها، كما يحارب بعض المتدينين الذين يحسبون أنفسهم أزكى وأتقى، وأن مخالطة الناس تنقصهم! فهم يؤثرون العزلة ويتهمون الغير، ويغطون كبرا فى صدورهم ما هم ببالغيه.

ولعل أولئك الذين عناهم ابن عباس لما سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة؟ فقال: هذا من أهل النار..!!

إن رسالة المسجد فى الإسلام حشد المؤمنين فى صعيد واحد، ليتعارفوا ويتحابوا، ويتعاونوا على البر والتقوى ويتدارسوا ما يعنيهم من شئون!!

وهذا التلاقى المنشود ليس حشر أجساد، إنما هو اندماج الفرد فى المجتمع على أساس من الحب وطلب مرضاة الله، وعلى كل مسلم أن يرتفع إلى هذا المستوى، وأن يقتل نوازع الأنانية إذا حدثته بالعزلة لأمر ما فقد جاء فى الحديث: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن أى لا يحقد أو يخون: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعاءهم محيط من ورائهم» أى إن بركة الله على الجماعة تشمل الكل وإن كان بينهم من هو دونهم كما جاء فى حديث آخر: «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار».

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف، وتعويد المسلمين عليه، والغريب أن أمتنا أبعد الأمم عن احترام نظام الصف والخضوع له ... مع ما ورد فى تنظيم الصفوف بالمساجد من توكيد وتشديد.

وتأمل فى هذا الحديث عن أبى مسعود: «كان رسول الله يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم».

وفى رواية: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل ولينوا بأيدى إخوانكم ولا تذروا فرجات الشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطعه قطعه الله»!!

لقد قرأت فى حرب فارس أن صفا من المجاهدين كان يعبر نهرا، فسقط كوز أحد المجاهدين فتريث الصف كله حتى عثر الجندى على ما سقط منه!! إنهم يتحركون بروح الجماعة، ولا يتصرفون كأنهم عقد انفرطت حباته!

وكم يشعر المسلم بالأسى وهو يرى أمته فى زحام الحياة تتحرك بروح القطيع، لا يهتم المرء إلا بنفسه ومصلحته!! هذا الشعور الهابط يقتل العشرات فى مناسك الحج، لأن نظام الصف، والإحساس بالغير مفقود عندنا، فالمسجد لا يؤدى رسالته!!

ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافى للأمة، وذلك عن طريقين: الأول تدبر ما يتلى من القرآن فى الصلوات الجهرية وخطب الجمعة، والقرآن كتاب يتحدث فى العقائد والعبادات والأخلاق والقوانين والشئون المحلية والدولية ويصف الكون ويسرد التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء.

وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عند السلف، إذ أن سليقتهم اللغوية مكنتهم من الاستمداد المباشر من آيات الله، والحق أن الذين أنصتوا للرسول الكريم وهو يتلو كتابه بلغوا شأوًا لا يضارع من السمو الفكرى والتربوى، فليس عجبا أن ينطلقوا مشاعل هدى فى أرجاء الأرض وينقلوها من الظلمات إلى النور.

أما الطريق الثانى لتثقيف الأمة فهو الدروس التى انتظمت فى ساحات المساجد، تتناول جميع العلوم بل إن الشعر كان يلقى فى المسجد، وكان الصحابة يستمعون إلى حسان بن ثابت وهو ينشد قصائده السياسية!

ومعروف أن المدارس الفقهية الكبرى كانت فى المساجد وأن الأئمة العظام كانوا يلقون تلامذتهم فيها، والفقه الإسلامى يحتوى على كل ما يهم البشرية من المهد إلى اللحد.

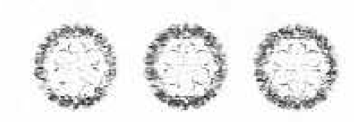
ولما كنت مديرا للمساجد وضعت لأيام الأسبوع الستة غير الجمعة ستة دروس فى التفسير والحديث والفقه والتاريخ والعقيدة والأخلاق ، أما يوم الجمعة فحسبه الخطبة ، وأعددت لذلك كراسات تحضير تراجع بعناية . . .

بل وضعت لتعمير سيناء خطة تقوم على إنشاء مستوطنات ، أساسها ثلاثة رجال : إمام مسجد ، ومهندس زراعة ، وضابط جيش ، وتركت اختيار الأماكن للمتخصصين . . .

وكان رأيى أن تبنى المساجد فى المدن والقرى على أساس مسجد واحد كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان . . .

إن المسجد كان القلعة الروحية التى ينطلق منها المجاهدون لمقاومة كل غزو ، وقد قاوم الجامع الأزهر الفرنسيين منذ قرنين حتى احتلوه بخيلهم ، وقاوم الإنجليز أوائل هذا القرن ، وكان يستقبل الأحرار من أقباط مصر الذين يحاربون الاستعمار ، ويؤازرون إخوانهم المسلمين . . وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من المصليات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد ـ أيام الحروب الصليبية ـ فقصت شعرها ، وأرسلت الضفائر إلى الإمام مقترحة أن تكون قيد جواد لأحد المجاهدين مما جعل المسجد يضج بالحماس ، وأغرى الرجال بالتفانى . .

هل انهزمت أوربا فى حملاتها الأولى إلا بهذه المشاعر ، وهل تراجع الاستعمار الجديد إلا بالروح نفسها؟



١٤. لماذا كانت الصلوات خمسا فى اليوم؟ وما هو شكل الصلاة المقبولة؟!

كما يحتاج الجسم الناشط إلى وجبات غنية تمده بالحرارة ، وتجدد ما بلى من خلاياه ، وتحفظ عليه عافيته ، تحتاج النفس الإنسانية إلى وجبات أخرى تعينها على التحليق ، وتمنعها من الإسفاف ، وتستنقذها من أمواج الفتنة والذهول ، وشتى الأهواء والأقذاء !

إن الإنسان ـ بجواذب من طبعه ـ يحب أن يذكر نفسه وينسى ربه ، يحب أن يضمن مصلحته وحدها ولا عليه أن يضيع الآخرين ، يحب أن يأخذ ولا يعطى ، وإذا أخذ فالشكر ثقيل عليه ، وإن شكر فكلمات خفيفة . . . ثم لا حق بعد لأحد!!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهرا من هذه الدنيا ، وتربية على جميع الفضائل التى تصح بها إنسانيتهم ، وتكمل بها عبوديتهم ، وتتم بها رسالتهم فى هذه الحياة ، وهل خلقوا إلا لعبادته سبحانه؟

وكون الصلوات عددًا معينًا ككون السعرات الحرارية التى يفتقر إليها الجسم عددًا معينًا! لاتتحقق الثمرات المطلوبة إلا بهذا المقدار ، ويقع الخلل المادى والأدبى بمقدار هنا وهناك!

وتنظر إلى حقيقة الصلاة التى شرعها الله للناس ، يقول الفقهاء عن هذه الصلاة : **إنها أقوال وأفعال مبدوءة بتكبير الله تبارك اسمه ، ومختومة بالسلام على عباد الله جميعا . . .**

قالوا : أما الأفعال فقد استوعبت صور التحية التى كان يتقدم بها الناس إلى رؤسائهم وعظمائهم بعد تجريدها من المقاصد الرديئة! الوقوف الخاشع! القعود المؤدب! الركوع والسجود اللذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام . .!

فأفعال الصلاة أن نقوم لله قانتين ، وأن نركع ونسجد له معظمين ، وأن نقعد مخبتين قائلين له : إن هذه التحيات التى أديناها ، وكل عمل صالح نقوم به فى حياتنا هو لك وحدك يا ربنا الكبير!!

أليس ربنا أهلا لهذه التحيات اللطيفة نقدمها له ـ سبحانه ـ صباحًا ومساء؟

بلى! وهو أهل التقوى وأهل المغفرة . . لذلك يقول الله لكل مسلم : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾(1) .

وربما أحس المرء بكلفة فى أداء هذا الواجب! واستثقل تكراره ألم نقل الإنسان قليل الشكر؟ لا بأس عود نفسك ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(2) .

وتكتنف أفعال الصلاة أو تتخللها أقوال كثيرة والمطلوب أن يكون المصلى حاضر الوعى حين يتكلم ، فإذا بدأ صلاته قائلا : الله أكبر ، فمعنى ذلك أنه فى موقف جدير يجمعه مع الله فلينتبه!

ويسمى الفقهاء هذه التكبيرة تكبيرة الإحرام ، كأن الإنسان حرم على نفسه الانشغال بشىء آخر لأنه شرع فى مناجاة الله ، والالتفات إليه وحده . .

والأقوال التى يرددها المصلى كثيرة ، لعل أهمها تلاوة أم الكتاب ، وقراءة هذه السورة ليس اختبارا فى الحفظ! فإن كلماتها تمثل لقاء حيا بين الله وعبده ، العبد يتكلم والسيد يجيب!

فى الحديث القدسى : **«قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل...»** . .

فإذا قال العبد : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ قال الله عزوجل : **حمدنى عبدى!**

وإذا قال ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ قال الله : **أثنى علىّ عبدى..**

وإذا قال : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ قال : **مجّدنى عبدى..**

وإذا قال : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ قال : **هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل..**

(1) هود : 114 . (2) هود : 115 .

وإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال : **هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل أى أعطيته ما طلب..**

وتكرار هذه المعانى حق ، فإن نعم الله مترادفة توجب تكرار الشكر ، وذكر الله بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى ثناء صادق ومدح مستحب ، والشعور بيوم الدينونة وملكه القائم على كل نفس بما كسبت يكفكف الغرور بالدنيا . .

وتعهد المصلّى أن يعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده هو رب التوحيد . فإذا وفى المصلى بعهده ، وسأل ربه من رفده منحه ما يطلب ، وأفضل ما يطلب الإنسان هدى يقيه الانحراف ، ورضا يقيه الطرد ، ونعمة تقرّ بها عينه ، وسدادا يقيه الحيرة . . ! الظفر بذلك سعادة الدنيا والأخرى . . !

ومع فاتحة الكتاب يقرأ المرء ما يشاء من الكتاب نفسه . وفى هذه الزيادة معرفة أكثر بالوحى الأعلى ، وما فيه من تبصرة بشئون الحياة كلها . .

ثم يركع المصلى مسبحا ربه العظيم ، فكم من سكان الأرض يشرك به أو يجحد وجوده ، أو يجهل ماينبغى له من نعوت الكمال ، أما المسلم فهو يخالف أولئك جميعا وينزه ربه عما لا يليق به من نقائص . وهو موقن بأن تنزيهه هذا قد صعد إلى الله الجدير به ولذلك يرتفع من ركوعه قائلا : **سمع الله لمن حمده.. أى استجاب الله لمن أثنى عليه وحمده.**

وكان رسول الله ﷺ يرفع من ركوعه أحيانا ويقول : **«اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما من شىء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد. لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»!!**

ومعنى الجملة الأخيرة أن المرء لا ينفعه عند الله ما نال فى الدنيا من حظوظ الرفعة والنعمة ، فليس فى ذلك دليل على الرضوان إلا على ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾(1) .

ثم يهوى المصلى ساجدا يسبح اسم ربه الأعلى ، ومع كل ركوع سجودان! والإنسان يكون فى أزكى الأحوال وأشرفها عندما يضع جبهته على الأرض بين يدى ربه ، فليدع بما شاء .

(1) الرعد : 26 .

وكان النبى أحيانا يقول فى سجوده : «سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين، أو «سبحان ذى الملكوت والجبروت والعظمة» وهذه الحركات كلها يكتنفها التكبير بدءاً أو ختامًا . .

وفى القعود الأول أو الأخير يذكر المرء لربه أن كل ما سبق من أفعال وأقوال تحيات لوجهه الكريم ، فهو يقول : التحيات لله ، والصلوات الطيبات ، ثم يلقى السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم وربى وأرشد ، وكأن هذا السلام إشارة إلى أنه الأسوة الحسنة ، فى إقام الصلاة ، وسائر الشرائع التى جاء بها! ثم يرسل سلاما آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين . .!

ما أحلى هذه الكلمات كلها ، وما أشرف الصلاة التى يكلف المسلم بأدائها . .

والمهم أمران : أحدهما عقلى والآخر قلبى! **أما العقلى** فيجب أن يعلم ما يقول ، ويعرف ما يناجى ربه به فقد جاء فى السنة **أن المرء لا يكتب له من صلاته إلا ما عقل منها!** أما أن يكون سكران بخمرة الدنيا وشواغلها ، ثم يقف تائها لايدرى ما يتكلم به فهذا هبوط وضياع ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾(1) .

أما القلبى فإن الصلاة تورث الخشوع والأدب والخشية ، وهى معراج روحى يرقى بصاحبه إلى الملأ الأعلى ، إنها ـ إن أقيمت كما شرع الله ـ توبة كاملة تمحو الخطايا محوا ، وتطهر النفس قال عليه الصلاة والسلام : **«أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون أيبقى ذلك من درنه شيئا؟» قالوا: لايبقى ذلك من درنه.قذاه.شيئاً! قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا».**

والأساس أنها تعصم من الخطايا ، وتحول دون مواقعتها كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾(2) .

بيد أن البشر ضعاف وقد تهى إرادتهم أمام إغراء مَّا ، ويزلهم الشيطان فهل ييأسون من تسام ومتاب وعود إلى الله؟ كلا ، فليفزعوا إلى الصلاة فهى تنقى أرواحهم وتشد عزائمهم إلى الصراط المستقيم ، المسلم لايذهب إلى كاهن يأخذ بيده ، فليس الكاهن خيرا منه ، ولو فرضنا أنه خير فما ينفع إلا نفسه ولا مفزع إلا إلى الله . . .

(1) النساء : 43 .   (2) العنكبوت : 45 .

١٥. ماذا يرمز إليه الوضوء؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا به..؟!

نظرت إلى بعض الأشجار القريبة منا وكان غبار الجو قد كساها ، وجعل أوراقها داكنة ، فلم تثر انتباها وخلفتها دون توقف . . وشاء الله أن تمطر السماء بعد قليل ، وكان مطرًا غزيرًا ، ومررت بالأشجار نفسها فكان منظرها عجبا كانت خضرتها تزهو ، والأوراق تحت أشعة الشمس تلمع! فقلت : ما أحسن النظافة ، أبرزت الخلقة الطبيعية فى جمالها الأصيل ، وبعثت النفوس على الإعجاب . .

كذلك جسم الإنسان ، إن النظافة تجلوه وتزكيه ، والجسم الإنسانى أحوج من غيره إلى التطهير الدائم ، لأن متاعبه لاتجىء من الغبار وحده ، وإنما تجىء من إفرازات الجلد والأعضاء ونفايات الأجهزة التى لاتهدأ حركتها ، ولم أر نظامًا للتنقية والتطرية أدق من التشريع الإسلامى فى احترام الجسم وإزالة القذى عنه ، واستئصال مايشينه واستبقاء مايزينه . . .

والوضوء من شعائر الإسلام المطردة فى الحياة الإسلامية ، وهو من الوضاءة أى الحسن الباهر ، ومعنى ذلك أنه فوق النظافة أنه تخلية وتحلية ، والنظافة قد تعنى إزالة الأوساخ وحسب!

كلمة الغسل فى اللغة لاتعنى إسالة الماء فقط ، يقال : غسلت السماء الأرض إذا كان المطر بالغ الشدة ، وإذا فرض الإسلام غسل أعضاء معينة فهو يريد تدليكها بما يطهرها ولا يترك أثرًا منفرًا فوقها .

وقد أوجب الإسلام الوضوء كما فرض جملة من الأغسال التى تشمل الجسد كله! ونستطيع جعل الوضوء رمزا لفلسفة الإسلام فى تكريم الجسم الإنسانى وإعزازه إذ إن هناك عقائد تعلن حربا على هذا الجسم ، وترى الارتقاء فى إهماله وإنحافه والجور عليه ، وذلك فى زعمها لترقية الروح .

والواقع أن الإنسان معنى ومبنى وقلب وقالب ، وعزل المادة عن الروح صعب .

والمفروض أن يكون المعنى الشريف فى مبنى نظيف ، وأن يكون القلب الطيب فى إهاب نفيس . .!

روى مسلم عن عمرو بن عبسة ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ : كيف الوضوء؟ قال : **«أما الوضوء فإنك إذا توضأت فغسلت كفيك، فأنقيتهما، وغسلت وجهك، ويديك إلى المرفقين، ومسحت رأسك، وغسلت رجليك إلى الكعبين، خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك»!**

قال أبو أمامة : **ياعمرو بن عبسة، انظر ماتقول؟ أكل هذا يعطى فى مجلس واحد؟**

قال عمر : **أما والله لقد كبرت سنى، ودنا أجلى، ومابى من فقر فأكذب على رسول الله ﷺ، ولقد سمعته أذناى ووعاه قلبى من رسول الله.**

والواقع أن الجزاء المذكور ليس على مجرد الوضوء ، فإن الوضوء وسيلة إلى الصلاة ، وهذى وذاك مظهران لإيمان حسن ، ومسارعة إلى رضوان الله ، فالثواب الوارد منظور فيه إلى جملة هذه الخصال المترابطة ، وقد تأكد هذا المعنى من أحاديث كثيرة . .

والوضوء وحده لا يصلح إذا كان الجسم بحاجة إلى تطهير تام ، كما فى حالة الجنب والحائض والنفساء ، وقد أمر الإسلام بتتبع ما يلوث البدن حتى لايبقى أى أثر لنجس ، وكانوا قديمًا يستعينون ببعض الأعشاب والألياف لإدراك النظافة المطلوبة ، وفى عصرنا توصل العلماء إلى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض!

إن المعلم كالطبيب ، كلاهما يريد الكمال للإنسان ، والطبيب فى كشوفه وعلاجاته يتناول الجسم كله لايستثنى منه شيئا ، وكذلك فعل الإسلام وهو ينقى البدن ويجمله ، أنه لم يتحرج من ذكر شىء مهم وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : **«الفطرة خمس: الختان، والاستحداد.** إزالة الشعر حول المواضع الحساسة. **وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط»** .

أى إن من المحافظة على الفطرة السليمة ـ وهى جوهر الدين ـ أن يتعهد المرء بدنه بهذه الآداب . .

ومن أطال شعر رأسه وجب عليه أن ينظفه ويسرحه ولا مانع من تعطيره ، ففى الحديث : **«من كان له شعر فليكرمه»!!**

ولابد من غسل الفم وتعهد الأسنان ومنع الفضلات من التخلف بين الثنايا ، إن الفم المتغير الرائحة بلاء على صاحبه ، ومصدر أذى لأصحابه ، وقد أسقط الإسلام

صلاة الجماعة عن الأبخر!! كما ندب لمن أكل ثوما أو بصلا أو فجلا أن يبتعد عن المجالس العامة ، وتعاليم الإسلام فى استعمال السواك كثيرة ، ويمكن الاستعانة بالمعاجين التى تنظف الفم ، وقد تغنى مكان السواك . .

والغريب أن الإسلام لم يكتف بالطهارات التى قررها ، بل ضم إلى ذلك التزين الذى يصلح الهيئة ، ويجلب الاحترام ، وقد روى أبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت: **«أومأت امرأة من وراء ستر، بيدها كتاب! إلى رسول الله ﷺ فقبض يده! وقال: ماأدرى، أيد رجل أم يد امرأة؟ فقالت: بل يد امرأة! فقال لو كنت امرأة لغيرت أظافرك.** يعنى بالحناء ـ أى لظهرت حمرة الخضاب على الأظافر!!

وعن عائشة أيضا أن هند بنت عتبة قالت: يارسول الله، بايعنى، قال: لا أبايعك حتى تغيرى كفيك كأنهما كفا سبع. أى وحش .!

والتجمل شىء غير التبرج ، التبرج إهاجة الغرائز الساكنة بصورة تميل بها نحو الإثم! أما التجمل فهو إبراز الجمال الطبيعى فى إطاره العادى المعتدل ، وجمال الأنوثة غير جمال الرجولة ، والإسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالآخر ، وليس معنى نهى المرأة عن التبرج أن تكون دميمة المظهر أو كريهة الرائحة ، كلا فلتكن حسنة الهيئة مع الاحتشام ، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ . .!

قلنا : إن الوضوء من الوضاءة ، أى الحسن والملاحة والإشراق! والحياة الإسلامية الأولى كانت آية فى النظافة والارتقاء ، فلما ساء معنى التدين وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة الرثة من الدين وأن إهمال الجسم دليل على التقوى وطلب الآخرة! والحق أن الشكل الفوضوى دليل موضوع مشوش وأن من أهمل حق بدنه لايؤتمن على كثير من الحقوق . .

أما نستحى ـ وقد أضاف الله الزينة إلى نفسه ـ أن نتأى عنها؟ ألم يجئ فى الكتاب العزيز : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾(١) . .؟ إن الله يريد وضاءتنا فلم نريد نحن الدمامة والرثاثة؟!

إن الوضوء رمز إسلامى لكل أسباب النظافة والزينة ، على أن يكون وراء ذلك بداهة فكر نظيف ، وأدب رائق جميل ، فيكمل الإنسان جوهرًا ومظهرًا وحقيقة وصورة!

(١) الأعراف : ٣٢ .

والوضوء ليس شرطا لذكر الله سبحانه وتعالى ، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه فى أوقاته كلها جُنبًا أو طاهرا ، بل يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم - فيما أرى - وتستطيع الحائض ذلك . والمؤمن لاينجس أبدا والجنابة عارض لبدنه يمكن الخلاص منه على عجل . .

أما الصلوات المكتوبة كلها ، فيستحيل الدخول فيها دون طهر ، والوضوء كاف لمن قام به حدث أصغر ، أما الحدث الأكبر فلابد من الغسل . .

وإنما اشترط ذلك حتى لايتجوّز المؤمن فى شئون النظافة ، ويتركها لأى عذر ينويه ، فما أسرع الناس إلى الترخص فيما لم يلزموا به حتما ، وإذا كانت الصلاة من أركان الإسلام الخمسة ، فإن النظافة تعد من الأركان لأنها تمهيد لامناص منه للصلاة ، ثم جاء تعبير القرآن بعد ذلك أعم وألطف إذ أمر باتخاذ الزينة عند الوقوف بين يدى الله : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . .﴾[1] .

والنظافة خلق قبل أن تكون عادة تتبع الغنى أو الفقر ، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعدم أية وسيلة تجعله تقيا وسيما ، وكم من فقير نظيف ، وغنى مجوج . . . !

(١) الأعراف : ٣١ .

١٦. ما حكمة الحج، ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهى بناء من حجر؟!

سمعت أحد الدعاة يقول : إن الله كلفنا بما نعقل فأطعنا ، فأراد أن يبلونا بأفعال الحج ليرى : أنطيعه فيما لا نعقل أم نعصيه؟ قلت له : هذا كلام ردىء ، وأفعال الحج ترتبط بحكم لاينكرها العقل ، وقد شرحتها فى موضع آخر ولا بأس من إعادتها هنا .

إن الأمم تغالى بكثير من ذكرياتها ، وتقرن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى ، وقد رُبط النصارى بقبر المسيح وطريق الآلام ، كما يقولون ، وربط اليهود أنفسهم بحائط المبكى ، وأسسوا عليه حقوقًا ما أنزل الله بها من سلطان! فلماذا يستغرب من المسلمين أن يرتبطوا بأماكنهم المقدسة ، ارتباطا - يبدو - عندما يدرس - أقرب إلى الرشد ، وأبعد عن الوهم؟ . .

الكعبة هى البيت الحرام الذى بنى لتقام فيه وعنده الصلوات لله وحده ، وقد قيل لإبراهيم وهو يؤسسه ﴿لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1] .

وهذا المسجد الحرام - أعنى الكعبة - هو أول مسجد بنى فى الدنيا لتوحيد الله ، ونبذ الشركاء ، وتمحيص العبادة لرب العالمين .

أليست لهذه الأولية حقوق؟ بلى . وطليعة هذه الحقوق ألا يشاد مسجد فى العالم إلا اتجه إليه وشاركه غايته فى التوحيد الخالص! وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن ينبعث كل قادر ليزور هذا المسجد الذى أصبح قبلته حيا وميتًا .!

هذه المعانى هى التى ذكرها القرآن الكريم فى أثناء الحديث عن هذه الكعبة :

(١) الحج : ٢٦ .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾(1) ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾(2) ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾(3) . . .

من أجل ذلك تنبعث الوفود من المشارق والمغارب لترى البيت الذى تصلى إليه ، ولتطوف حوله طواف تقدير واحترام!

ماذا يقول الحجيج وهم يطوفون بهذا البيت ؟ يقولون : **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير»! يقولون: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»..**

إنهم لا يعبدون البيت وإنما يعبدون رب البيت ، والطواف كما أجمع العلماء - صلاة لابد لها من طهارة البدن ولابد فيها من خلوص القلب لله .

ومن زعم أن الكعبة كلها أو بعضها يضر أو ينفع فهو خارج من الإسلام .

ومن حق رب البيت أن يضع طريقًا لزيارة بيته ، فإذا جعلها طوافًا من سبعة أشواط فليس فى الأمر ما يستغرب ، ففى طول الدنيا وعرضها توضع طرائق شتى للاستقبالات والاستعراضات!!

وحكمة أخرى لا تقل جلالا عن سابقتها ، تفسر الطواف حول البيت العتيق ، إن الأمة الإسلامية التى تبلغ ألف مليون من البشر ، بدأت دعوات حارة على ألسنة الرسولين الكريمين اللذين توليا بناء هذا البيت! دعوة ملؤها الاستسلام لله ، والرغبة فى مد عبادته من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد إلى قيام الساعة ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ .. ﴾(4) كما أن هذين الرسولين الكريمين دعوا الله أن يجعل فى هذه الأمة نبياً يعلم ويربى ويتلو آيات الوحى الصادق ، فكانت بعثة النبى الخاتم بعد قرون طوال !

أهناك ذكريات تاريخية أعز من هذه الذكريات؟ فإذا لم يحج المسلمون البيت الذى بدأ عنده تاريخهم ، فأين يحجون؟ وإذا لم يقصدوا البيت الذى كان تنبيهم دعوة مخبوءة فى ضمير عند بنائه استجابها الله وباركها ، فأين يقصدون؟

(1) آل عمران : 96 . (2) آل عمران : 97 . (3) البقرة : 144 . (4) البقرة : 128 .

إن الكعبة بناء من حجر ، مايغليها أن تكون بناء من ذهب ولا يرخصها أن تكون من خشب ، المهم هو المعنى الذى يحفها . .!

رجل واحد هو فى طاقته أمة! أحب الله من أعماق قلبه ، وألقى فى النار لحرصه على توحيده ، وخاصم الملوك والجماهير لإعلاء هذه الحقيقة ، وتنقل بين أرجاء رحبة من الأرض يدعو ويجادل ، طوحت به سياحاته إلى هذا المكان النائى ليشيد على أنقاض الوثنية حصنا للتوحيد ، ويسأل ربه وهو يبنى أن يجعل من عقبه أمة تحمى الحق وترفع رايته ، أكان للناس عجبًا أن تهرع هذه الأمة بعدما تمخض عنها الغيب لتزور المسجد الذى وضع أبوها ، وتهتف من حوله بشعار التوحيد؟

إن الأب الراحل دعا الأجيال لتزور بيت الله ، وتوثق حبالها بالعقيدة التى أنشأته ، ووقع فى قلوب الألوف المؤلفة صدى هذا النداء ، فأتت من كل فج تقول : **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك!**

فهل تتهم هذه الوفود الموحدة بأنها وثنية؟ أليست هذه السفاهة بعينها . . .؟

إن بعض الناس لا يدرى المعانى العظيمة التى تحف مناسك الحج ، وقد يكون الحجاج أنفسهم من هذا القبيل!

نظرت إلى «المسعى» وهو يموج بحشود كثيفة تطوف بين الصفا والمروة ، وساءلت نفسى : إن هذا السعى بين الجبلين الصغيرين شرع لترسيخ عقيدة التوكل على الله ، وإن وهت الأسباب المادية ، فهل الساعون يعون ذلك؟

من قرون خلت كانت هذه البقعة يسودها صمت الوحشة والانقطاع ، لا أنيس هنالك ولا عمران ، جاءها إبراهيم عليه السلام بامرأته وابنه الرضيع ، ثم قال : للأم الضعيفة : سأتركك هنا . .!

وتساءلت هاجر دهشة : تتركنا هنا أنا وإسماعيل . .؟ حيث لا زرع ولا ضرع ، ولا دار ولا ديار؟ قال : نعم . قالت : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . .

- إذن لا يضيعنا !! وانصرف الأب لايدرى ماذا سيقع له ولا ما سيقع لأسرته ، لقد نفذ ما أوحى إليه به وحسب!

ونفد الزاد والماء من هاجر ، وجاءت الساعة الحرجة ، وانطلقت الأم بين الربوتين الجاثمتين على صدر الوادى تبحث عن غوث للرضيع الذى يوشك أن يهلك .

وبعد أمد جاء الملك وفجر بئر زمزم ، وحامت الطير حول الماء الدافق ، وأحس الناس ما جدّ فأقبلوا على المكان يعمرونه!

إن ثقة هاجر فى الله أثمرت الخير ، ولم يخذلها الله بعدما آوت إليه . .

والتوكل على الله ـ مع ضعف الأسباب أو انعدامها ـ زاد يحتاج إليه المجاهدون ، والمضطهدون ، يعتمدون عليه فى اليوم الكالح كى يسلمهم إلى غد رابح .

وقد خسر المسلمون معارك كثيرة ، كانوا جديرين بكسبها لو استندوا إلى الله ، ولكنهم خاروا لضعف يقينهم ثم هنوا فى أرضهم!

هل يعى ذلك الساعون بين الصفا والمروة؟ وهل عرفوا عقبى التوكل عندما يمثلون الدور الذى قامت به أم إسماعيل وهى تتحرك جيئة وذهابًا بين الربوتين؟

قال التاريخ : واعترض الشيطان إبراهيم لما ترك أسرته بالوادى المقفر ، يقول له : كيف تنفذ أمرًا فيه هلاك أهلك ، لأن الله أمرك؟! فقذفه إبراهيم بحصيات التقطها من التراب ، فكانت تلك سنة رمى الجمار فيما بعد !

إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم وماضيهم وحاضرهم .

ويكفى أنها تجمعهم من أطراف الأرض شعثًا غبرًا لا تفريق بين ملك وسوقة ، ولا بين جنس وجنس ، ليقفوا فى ساحة عرفة فى مظاهرة هائلة ، الهتاف فيها لله وحده ، والرجاء فى ذاته والتكبير لاسمه ، والضراعة بين يديه ، فقر العبودية ظاهر! وغنى الربوبية باهر! ومن قبل الشروق إلى مابعد الغروب لا ذكر إلا لله ولا طلب إلا منه سبحانه . .

إن الحج من الناحية الروحية إذكاء مشاعر ، وتجديد عاطفة . ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التى تكفل مصلحة المسلمين العليا .

ولكى ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون فى السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة .

فى السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم ، ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم . .

وفى السنة العاشرة وضعت تقاليد إنسانية وآداب عامة تضمنتها الخطبة الجليلة التى ألقاها الرسول ﷺ فى حجة الوداع . .

فهل يسمع المسلمون شيئًا ذا بال عندما يحجون فى هذه الأيام؟

١٧. ما هى دار الحرب، وما هى دار الإسلام؟

يقصد بدار الإسلام جميع الأراضى التى يعمرها المؤمنون برسالة محمد ﷺ ، العاملون بكتابه وسنته ، المنفذون لشرائعه ، والمنضمون تحت لوائه . ويقصد بدار الحرب جميع الأراضى التى يقطنها الكافرون بهذه الرسالة ، المخاصمون لها ، المعترضون لدعوتها . .

قد تتسع هذه الدار فتشمل كل الأوطان التى غزانا منها الصليبيون القدامى ، أى أوربا كلها تقريبًا! وقد تتسع لتشمل كل الأقطار التى أغار منها التتار علينا ، فوصلوا من الصين إلى فلسطين! ، وقد تضم كتابيين ، ووثنيين ، وملاحدة!

وقد سميت هذه البقاع وأهلوها دار حرب من باب المعاملة بالمثل ـ كما يتبين ذلك قريبًا ـ فإن أرض الإسلام لم تكن لها حرمة عند أعدائه فلم تصان أرض أولئك الأعداء . .؟

على أنى أشعر بالألم لهذه الجفوة القاسية وآسى لإنسانية انقسمت على هذا النحو الدامى ، وتاريخ مُلئ بالإحن والحروب!

لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين ، ولا عهود تؤمن الأتباع من هنا ومن هناك ، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهاترة تشعل الأحقاد ، وتورثها للأحفاد ، وليس بين الفريقين إلا ما يقوله الشاعر :

الله يعلم أنا لا نحبكم	ولا نلومكمو ألا تحبونا
كل له نية فى بغض صاحبه	بنعمة الله نقليكم وتقلونا!!

من المسئول عن ذلك؟ قبل أن أذكر ماعندى أذكر ماقاله أقطاب القانون الدولى عند الأوربيين ، وهى أقوال نقلتها عن كتاب «المجتمعات الدولية الإقليمية» المقرر فى معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية .

والمؤلف رجل محايد لم يره أحد يوما فى ميدان الدعوة الإسلامية هو الدكتور محمد حافظ غانم وزير التعليم العالى الأسبق . .

كتب تحت عنوان «العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها»

فقال : «منذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية! وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التى يقررها هذا القانون»[1] .

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوربيون راغبين فى اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية فـ «جروسيوس» أبو القانون الدولى قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية! ومع أنه يرى القانون الطبيعى مجيزًا لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى إلا أنه نادى بتكتل الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة .

و«جينتليس» هاجم «فرانسوا الأول» ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانونى ـ الخليفة العثمانى ـ سنة ١٥٣٥ م مع أن هذه المعاهدة أقامت سلامًا بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا فى دار الإسلام! ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

وذلك على أساس أن هـذه المعاهدة تقيم تعاونًا بين ملك مسيحى وبين غير المؤمنين!

أقول : وهو تعاون ـ فى نظر رجل القانون الدولى ـ لا يجوز بل يجب أن يبقى التناكر والتعادى بين الفريقين ، وأن تهيأ الفرص لسفك المزيد من الدماء! بم نعلق؟ ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[2] . .

يقول المؤلف : بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم فى أوربا ، على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين ـ أى ضد المسلمين ـ وظهرت عدة مشروعات من هذا النوع .

ويستطرد المؤلف ـ بعد شرح هذه المشروعات ـ فيقول : إن الدولة الأوربية فى تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظر إليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد الحرب! ولقد اعتبر الاستيلاء على أراضى المسلمين عملاً فاضلاً يدعو إلى الفخر . .!!

(١) جميع العبارات المنقولة هنا مؤصلة بمراجعها العلمية والأجنبية وقد أثبتها كلها فى كتابى «كفاح دين» .
(٢) سبأ : ٢٥ ، ٢٦ .

ثم يقول المؤلف : ونخلص مما تقدم إلى أنه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة إسلامية أخرى تتمتع بحقوق القانون الدولى .

هكذا كانت النظرة إلينا حتى بدايات العصر الحديث! والواقع أن رجال الحرب والسياسة والقانون ، كانوا قبل الحروب الصليبية وبعدها ينظرون إلينا ببغضاء عميقة ، وقد ورثوا عن آبائهم كفرًا برسالة محمد ورغبة جامحة فى تشويهها والقضاء عليها!

محمد مدع لا صلة له بالنبوة! وأتباعه مخدوعون لا يقبل منهم إيمان ، وليس لهذا الدين ولا لمن دخل فيه حق مادى أو أدبى ينبغى أن يراعى! إنهم خارجون على القانون فمن اغتالهم أو اجتاحهم لم يرتكب إثمًا!

ماذا يفعل المسلمون إذا رأوا هذا الحيف ، وهم موقنون بأن الله واحد ، وأن رسله كلهم ـ ومعهم محمد ـ حق؟

إذا اعتبرت أرضهم دار حرب اعتبروا أرض غيرهم دار سلام؟ هذى بلاهة!!

كان عباد الأصنام يشمئزون من عقيدة التوحيد! ويرفضون سماع شىء عنها : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[1] .

ليكن ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] .

لا ، لن ندعك تدعو ولن ندع الآخرين يتبعونك ، والسيف هو الحاكم! ويصور القرآن الموقف فى هذه العبارة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[3] .

فإذا تجاوزنا الوثنيين إلى أهل الكتاب وجدنا الضغائن أشد ، والأنياب أحد . . إنهم لا يطيقون سماع كلمة عن الإسلام ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾[4] .

كلا الفريقين من يهود ونصارى يريد أن ننسلخ عن ديننا ونتبعه!

إننا ياقوم أعرف بموسى وعيسى ، وأرعى لتراثهما الصحيح ، وأسرع إلى مرضاة الله الذى أرسلهما ، وأرسل بعدهما محمداً . .

(١) الإسراء : ٤٦ .
(٢) يونس : ٤١ .
(٣) البقرة : ٢١٧ .
(٤) البقرة : ١٣٥ .

لا لن تصفو لكم ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .. ﴾(١) .

ويبذل أهل الكتاب جهود المستميت لسحق الدين الجديد ، وتعويق المصدقين له ، وصرفهم ولو إلى الإلحاد أو الوثنية!!

وإنك لترى تقريع الأسى والغضب فى تعليق القرآن على هذا الموقف الوضيع ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

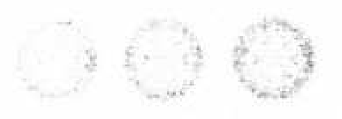
مـاذا يصنع المسلمـون بإزاء هذه العـداوات المحيطة؟ إن الذى يطلب منهم الاستكانة لها لا ذرة لديه من عقل . .

وها قد طلع العصر الحديث ، عصر عصبة الأمم ، ثم هيئة الأمم ، ومجلس الأمن ، وقيل إن للإنسان حقوقًا ، وللشعوب كرامات! فهل اختفت المواريث القذرة فى تاريخ العالم وتخلصت البشرية من طبائع الظلم والغبن؟

إن قضية فلسطين نموذج لشر ضروب التعصب ، فقد طرد شعب مسلم من داره ، وحلت محله إسرائيل ، وقالت الدولة الراقية ؛ لقد خلقت إسرائيل لتبقى . . .

وستتبع فلسطين أقطار أخرى مادامت جزءًا من أرض الإسلام لأنها فى نظر الاستعمار القديم والحديث دار حرب !!

إننا لا نحب هذا التقسيم ، ولكن غيرنا ألجأنا إليه وإذا تركه تركناه . .



(١) البقرة : ١٢٠ .
(٢) آل عمران : ٩٨ - ٩٩ .

١٨. ما حقيقة الحرب والسلم فى الإسلام...؟

ألف «ابن تيمية» رسالة صغيرة عن القتال فى الإسلام بدأها بهذا السؤال : هل مقاتلة الكفار بسبب عدوانهم أم لمجرد كفرهم؟ ثم أجاب(١) : فى ذلك قولان مشهوران للعلماء :

الأول : قول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل وأبى حنيفة وغيرهم ، فهؤلاء يرون أن الكفار يقاتلون لاعتدائهم لا لضلالهم!

والثانى : قول الشافعى وربما علل به بعض أصحاب أحمد ، وأساس هذا القول أن الكفار يحاربون لسوء عقيدتهم وجحدهم لله ولحقوقه!

قال ابن تيمية : وقول الجمهور هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار فإن الله سبحانه قال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾(٢) .

فقوله : ﴿ الذين يقاتلونكم ﴾ تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا ، فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال . ثم ﴿ ولاتعتدوا ﴾ والعدوان مجاوزة الحد فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان ، ويدل عليه أيضًا قول بعد هذا : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ فدل على أنه لاتجوز الزيادة .

(١) تصرفنا فى العبارات بما يقرب المعانى إلى القارئ .
(٢) البقرة : ١٩٠ - ١٩٤ .

ثم قال : ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ﴾ الفتنة تحويل المسلم عن دينه قسرًا كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين ، ومقاتلتهم حتى تتكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة ، ولم يقل سبحانه قاتلوهم حتى يسلموا!!

﴿ ويكون الدين لله ﴾ وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله ورسوله غالبًا . .

ذاك ما جاء فى الكتاب الكريم ، أما ما جاء فى السنة فقد صح أن النبى ﷺ مر فى بعض غزواته على امرأة مقتولة ـ فكأنه كره ذلك ـ وقال : «ما كانت هذه لتقاتل!» فعلمنا أن العلة فى تحريم قتلها أنها لم تكن تقاتل .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يوصى بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال ، روى أبو داود أن النبى ﷺ كان يوصى الجيش الذاهب إلى المعركة : «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

وقد ادعت طائفة أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن تيمية : وهذا رأى ضعيف ، ودعوى النسخ تحتاج إلى دليل وليس فى القرآن مايناقض ـ الآيات التى ذكرناها ـ بل فيه ما يوافقها فمن أين يجىء النسخ؟ الصحيح أنها محكمة وأن من ليس معدًا نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ الفناة ، والزمنى والمكافيف والمجانين ، فإن هؤلاء لا يقاتلون وهذا حكم باق غير منسوخ ، وهذا قول جمهور العلماء .

ونمضى نحن فى مناقشة القائلين بشىء من التفصيل يزيد الحق وضوحًا . .

من أعجب ما قرأت أن قوله تعالى :﴿ قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ﴾ منسوخ بالآية التالية مباشرة ﴿ اقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾!!

وهذا ضرب من اللغو كان يجوز إثباته ، لأن القائل قطع جملة من ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ وضرب بها السياق كله على نحو لا يسوغ فى دماغ عاقل ، ولذلك نتجاوز هذا الرأى . .

الدليل الذى يعتمد عليه القائلون بالنسخ مايسمى بآية السيف يعنون مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾(1) .

(1) التوبة : ٥ .

وفى هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذى عينين فإن كلمة المشركين هنا فسرت فى الآيات السابقة والآيات اللاحقة بأنهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حدًا لايطاق ، وأنهم جماعة من الفتاك القادرين تعرفهم عندما تقرأ الآية التى استثنت من تصان دماؤهم من المشركين ، وهى قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾(1) .

يعنى أن المشركين المطاردين هم قوم نقصونا حقوقنا وظاهروا أعداءنا ، واحتقروا عهودنا .

ولكى نزداد بهم معرفة نقرأ وصفهم فى الآيات الآتية : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾(2) .

هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم فى صدر سورة براءة ، وأعطوا أربعة أشهر مهلة ليروا مايصنعون بأنفسهم! فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية ﴿ قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ .

إن القول بالنسخ لا قتال إلا للمعتدين لا مساغ له أبدًا ، ولايدل على فقه فى القرآن الكريم .

قال لى بعض الأخوة : على رسلك ، إن الإطار الذى تريد وضع الجهاد الإسلامى داخله قد محته آيات الجهاد المطلق ، الجهاد الذى يخاصم الضلال حيث كان ، ويريد غسل الأرض منه ، فلا داعى لهذه القيود التى تذكر . .!!

قلت : أين هذه الآيات؟ ألم تقرأ قوله تعالى يغرى طلاب الآخرة بالجهاد : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(3) إن هذه الآية تحث على خوض الحروب انتصر المرء فيها أو انهزم ومادام يريد إعلاء كلمة الله فله أجره!

(1) التوبة : ٤ . (2) التوبة : ٨ ـ ١٠ . (3) النساء : ٧٤ .

قلت : لعلك لو قرأت الآية التى تليها مباشرة لعلمت أن هذه الحرب لم تكن عدوانًا بل ردًا للعدوان وكسرًا للطغيان!

أليس يقول الله سبحانه فى حفز الهمم لخوض هذه الحرب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (١) .

إن هذا القتال من أشرف مادار على سطح الأرض بالنسبة إلى جمهور المسلمين ، فكيف يوصف بأنه قتال لم يرتبط بقيد معين؟

فصمت قليلاً ثم قال : خذ آية أخرى قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ . . ﴾(٢) .

قلت : هذه آية تصف مايجب عند التحام الرجال فى المعركة ، ولا تتحدث عن سبب القتال ، ومع ذلك فلو سلمنا بوجهة نظرك فإن أول السورة التى ذكرت فيها الآية يحدد من هو العدو الذى نحاربه!

أول هذه السورة :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾(٣) والصد عن سبيل الله يعنى تعويق الدعوة عن المضى فى مسارها ، وإيذاء المؤمنين الذين تنشرح صدورهم بها ، وهذا عدوان حقيقى!!

قال : خذ آية أخرى والآيات كثيرة : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٤) قلت : هذه الآية بين عشرات من الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك تستنفر المؤمنين كى يقاتلوا الروم ، ويحدوا من طغيان النصرانية شمال جزيرة العرب ، ومعروف أن الرومان قتلوا بعض

(١) النساء : ٧٥ .
(٢) محمد : ٤ .
(٣) محمد : ١ .
(٤) التوبة : ٤١ .

من أسلم فى مدينة «معان» ونشروا الرعب فى بقاع واسعة كان عملاؤهم يحكمونها . .

وقد حاول المسلمون أن يوقفوا هذا التحدى ، وأرسلوا جيشًا إلى «مؤتة» هزمه الرومان ، وقتل القواد الثلاثة الذين حاولوا الصمود به ، ولم يجد المسلمون بدًا من الانسحاب ، فعادوا إلى المدينة وقلوبهم كسيرة .

وازداد الطين بلة ، فإن تيار الدعوة ركد تحت تأثير السطوة الرومانية المحذورة ولم ير النبى مناصًا من إعداد أكبر جيش فى تاريخ الدعوة لينازل الإمبراطورية العجوز ويلزمها حدودها! إن الحرب كانت واجبًا حتمًا ، ولم تكن غارة عمياء ، وسوف نزيد الأمر وضوحًا فيما بعد .

